﴿۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ
هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨]

مُقَدِّمَة

(لست بالخبِّ. ولا الخِبُّ يخدعني!)

عمر بن الخطاب

❀ ❀ ❀

دونت هذا الكتاب في عام عصيب، كانت فيه ملامح انهيار وختم الثورات العربية تظهر في كل مكان: في تونس عاد العلمانيون الأقحاح للحكم وفي مصر دخل الإخوان في دوامة من المظاهرات اليائسة وفي سوريا بدأت الفصائل والتنظيمات تضرب بعضها البعض وفي اليمن بدأت النهاية المجنونة، أما ليبيا فقد ظهر فيها حفتر المدعوم غربيا وإقليميا كنكتة هزيلة في البداية لكن مع الأيام ثبت أنها داهية سوداء ثقيلة!

في هذا العام، ٢٠١٤، تمطع الملوك الجبابرة في مشارق الأرض ومغاربها أخيرا بعد طول انقباض وذعر، وبدأت الآلات الإعلامية والشرعية والثقافية تعمل جاهدة لنشر ما سعوا إليه منذ البداية: إياكم أن تفكروا مرة أخرىٰ في الاعتراض وإلا سيكون

مصيركم مثل: . . . ضع مكان النقط أي اسم لدولة قامت فيها ثورة ثم أضف عليهم التجربة الجزائرية الدموية التاريخية!

ورأت أمريكا بنظرتها المستقبلية أن الخطر الداهم حينها تمثل في بناء كيان وهابي في العراق والشام، مبني علىٰ أصول وهابيي إخوان من طاع الله أو أشد والمنفلتة من عقالها، لا علىٰ أصول وهابيي آل سعود الأمريكية التي (تعرف) دورها وحجمها جيدا!

بدأت حينها أجواء إعلامية متداخلة الأفكار تنتشر، وانثالت التنظيرات المخذلة والمرجفة للقلوب علىٰ الشبكات والصحف وكافة وسائل الإعلام. لم تكن تنظيرات عن (عثرة) أو (فشل حالي لمسار الثورة والجهاد). لا! إنما هي تنظيرات (تنطلق) من الفشل الحالي لتأكيد أنه فشل مطلق زمانا ومكانا وأن هذه المناهج خاطئة من الجذور!

عشت هذه الأيام وتابعت الجميع ورأيت الخيط الدقيق الذي يربط المفكر بالمثقف بالأديب بالشيخ بالحاكم العربي بأوباما! لقد كانوا جميعا يعملون حينها بكل قوة لتوصيل رسالة واحدة: توقفوا فورا يا مجانين! اعتذروا وتراجعوا عن هذا الجنون وإياكم العودة لمثل هذا التهور مرة أخرىٰ!

شعرت حينها، وأنا أطالع هذه التلال السوداء من زبالات التنظير، بظاهرة ديجافو! إن هذه الأكوام الكبيرة المنتفشة حين تتدبر في أصل أفكارها ومحاجاتها تجدها مماثلة لشيء شوهد من قبل!

نعم! مماثلة لما ورد في القرآن من محاجات قالها المُعوِّقون تخذيلا وإرجافا بالنبي! هنا كانت البداية لأشهر ممتعة علىٰ المستوىٰ الشخصي! لقد تركت كل شيء ورحت أجمع أصول كتب السير والمغازي والسنن، وعشت بينها أتأملها وأقرأ، وأعيش مع النبي معاركه بكل روحي. كان كل تخذيل وإرجاف يقال للنبي أشعر بشغف شديد لمعرفة كيف تعامل النبي معه ورد عليه، تُدهشني مواقفه وسرعة استجابته في مصدر، فأهرول إلىٰ مصدر آخر لأعرف المزيد فتزيد دهشتي. لم (أقرأ) الحوادث المتتالية منذ وصل إلىٰ المدينة. بل عشتها، ورأيت صورة حية لهذا المجتمع المحارب العظيم، الحوارات اللفتات، حتىٰ الأعداء عشت معهم، ولم أكن أظن مثلا أني سأتعرف إلىٰ أبي سفيان لهذه الدرجة! أني سأشاهد حيي بن أخطب وزعماء اليهود بهذا القرب! ابن سلول وتعليقاته السامة الذكية جدا! إن الأمر كان أشد من الصورة الكاريكاتورية أو الاختزالية التي يتم بثها وتقديمها عن كافة الأطراف، لكن الصورة الحقيقية لن (تقترب) منها إلا إذا عشتها بداخل المصادر المختلفة.

ثم بحثت عن كتاب تخصص في ضم كافة محاجات المعوقين التي طالعتها، فلم أجد ما يكفيني، لذا بدأت في تدوين هذا الكتاب وانتهيت منه في نوفمبر **٢٠١٤**. وحدثت ظروف منعت نشره ورقيا في يناير **٢٠١٥** -وهو الموعد الذي حددناه لظهوره- فظل حتىٰ **٢٠١٧** غير مطبوع. استغللت هذه الظروف التي عرقلت ظهوره في أخذ آراء

بعض أفاضل طلبة العلوم الشرعية والسياسية والمثقفين فجاءتني الملاحظات والتشجيعات والانتقادات المفيدة، وكنت قد قررت في ذات الوقت -خاصة مع قدوم ٢٠١٥ الذي ازدحم بحملات إعلامية كبرىٰ منظمة من أمريكا بغرض سحق تنظيم الدولة- أن أضيف فصلا عن الاستخدامات العسكرية المعاصرة لهؤلاء المعوقين المخذلين. ثم قادتني قراءاتي في الكتب الأمريكية الأكاديمية أو المتوفر من العسكرية إلىٰ وجوب كتابة قسم كامل يتلو قسم جامع للمتن الأصلي أعرض فيه أبرز ما قرأت معلقا عليه.

وتزامن ٢٠١٥ مع بروز فكرة كتابة (الإسلاموطوبيا) والذي كنت أعتبره جزءا متمما لهذا الكتاب، وكان هناك احتمال أن أكتفي بوضعه في فصل أو قسم ثالث بهذا الكتاب، إن لم أضعه مؤلفا منفصلا، أشرح فيه خطورة هذا السم واستخداماته التوظيفية: فقمت بعمل مخطط كبير للمنهج والمصطلحات التي سأستعملها وعرضتها علىٰ أحد المعارف المثقفين فأيد الفكرة. ومع الوقت آمنت بأن الموضوع كبير جدا علىٰ أن يكون تابعا لهذا الكتاب وخاصة بعدما انشغلت طوال ٢٠١٥ و٢٠١٦ في رصده والكتابة عنه، فترسخت فكرة وجوب فصل الإسلاموطوبيا في كتاب خاص، إلىٰ آخر القصة التي رويتها في مقدمة الكتاب الذي يصدر بهذا العنوان خلال هذه الأيام. وسيعلم القارئ حين ينتهي من كليهما أنهما مكملان لبعضهما البعض ولا ينفصلان.

❀ ❀ ❀

كم مرة سمعنا أن الحق أبلج والباطل لجلج؟! كم مرة فهمنا من ذلك أن حجج أهل الباطل -ومنهم المُعوِّقين- مبناها هش ضعيف لا يمكن أن تقبلها العقول؟ فلأقل لك مبدأيا: هذا انطباع خاطئ! المنافق عليم اللسان يمكنه أن يُحكِم بناء من الباطل يدهش الناظرين في متانته وقوة أسسه! إن هذا الكتاب ليس المطلوب الرئيسي منه (حصر وهدم) كافة حجج الباطل التي يقولها المعوقون: إذ أن حصرها مطلقا في كل الأزمان والأمكنة شبه محال. فالعقول قادرة علىٰ الكثير والكثير من توليد للشيء وعكسه وما بينهما!

إنما الغرض منه عرض الحجج التي قيلت في عهد المغازي النبوية، وهي كثيرة ومتنوعة وتصلح حين التجريد لتغطية أكثر من ثمانين بالمئة علىٰ الأقل من الحجج المستخدمة حاليا، وهذا رقم كبير كاف جدا لك كي تتعرف علىٰ هوية المُعوِّق والمخذل والأساس الذي يبني عليه، وهذا شيء كاف جدا بالنسبة لي من هذا العمل.

وقد قسمت الكتاب إلىٰ مدخل ثم قسمين كبيرين ثم فصل نهائي فختام:

في المدخل قمت بتعريف المعوق والمخذل والمرجف لغويا والرابط بين هذه المعاني والقرآن، ذاكرا آراء الفقهاء المتعلقة بهذا الموضوع.

وفي القسم الأول ذكرت أحداث الغزوات، عارضا كل واحدة تم استخدام المحاجات فيها في فصل خاص، تم تقسيمه داخليا إلىٰ

سرد موجز للغزوة ثم سرد للمحاجات وتجريدها ثم ختمة بعرض للآيات والتفاسير التي أسهبت في الحديث عن التخذيل والإرجاف في المغازي، وفي هذا وجدت في الكشاف ومفاتيح الغيب تفاصيل ورؤىٰ لم أجدها في غيرهما إلا قليلا. وهذا القسم كتب في **٢٠١٤** بالكامل وقمت بتنقيحه في **٢٠١٦** وهو المتن الأصلي للكتاب.

ثم في القسم الثاني الذي سميته (أكاديمية المعوقين) تجولت مع القارئ بين أسطر وكلمات توضح خطورة ما نحن فيه ووجوب عدم الغفلة عن العمليات النفسية الجارية علينا طوال الوقت، وقد ألحقت به مقالا عرضت فيه أبرز حالة معاصرة للتخذيل والعلميات النفسية بشكل عام. وجاء الفصل النهائي بعنوان معركة الوهن تنبيهًا للإطار الكلي الذي تدور فيه وحوله المعركة.

أخيرًا، فإني أسأل الله إن كان هذا الكتاب نافعا للمسلمين أن يجعله مما يمكث في الأرض. وأن يغفر لي ذنوبي وخطاياي الكثيرة الكبيرة بهذا النفع. وأن يرزقني الإخلاص في العمل له وحده. وأن ينزع عن قلبي وعقلي كل حُب علا فوق حبه وحب نبيه . . وأن يثبتني علىٰ دينه في دنيا تقلب القلوب وزمن يصبح فيه أحدنا مؤمنا ويمسي كافرا . . وألا يبتليني ببلاء الوهن فيضعف معه قلبي فوق ضعفه، وأن يبارك لأهلي ويجعل منهم أئمة لهذا الدين . . وأن يختم لي الختام الذي أتمناه، بأن يكون راضيا عني تمام الرضىٰ في دنياي وآخرتي.

وأن يتجاوز عن سيئات سراة الرجال الذين ما كتبت هذا إلا ذبا عن دينهم وفكرهم وجهادهم أمام تكالب أهل الأرض عليهم. فاللهم ألحقهم بالصالحين وألحقنا بهم غير مفتونين.

يناير ٢٠١٧

مـدخـل

المعوِّقون في اللغة والاصطلاح والفقه

الـمُعوِّقون في اللسان:

من هو المعوِّق؟ التعويق هو التثبيط، وفي القرآن: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾، فالمُعَوِّقون المذكورون في الآية هم قوم من المُنافقين كانوا يُثَبِّطون أَنصار النبي[1] .. وفي الكشاف أنهم المثبّطون عن رسول الله[2]. فالمثبط هو المخذِّل الذي يحاول دفع الناس بعيدا عن مناصرتك بكل الأشكال. والتخذيل هو حمل الرجل علىٰ خذلان صاحبه وتثبيطه عن نصرته؛ وهو تفعيل من خذل: ضد الناصر[3]. وخذَّل عنه أصحابه تخذيلا، أي حملهم علىٰ خذلانه، وجاء في الحديث (المؤمن أخو المؤمن لا يخذله). والخذل: ترك الإعانة والنصرة. فالمُخذِّل: من يقوم علىٰ نشر المحاجحات بين الناس للقعود وخذلان المسلمين المجاهدين وإعاقتهم عن حضور القتال مع

---

(١) لسان العرب. ابن منظور: مادة عوق، ١٠/ ٢٧٩: ٢٨١.

(٢) الكشاف. الزمخشري، ٣/ ٥٢٩.

(٣) لسان العرب: مادة خذل، ١١/ ٢٠٢.

إخوانهم. والإرجاف: من رجف. وهو الاضطراب الشديد، والرجفة: الزلزلة. ورجف القلب: اضطرب من الجزع[١]. وأرجف القوم: إذا خاضوا في الأخبار السيئة وذكرُ الفتن. وقد ذكر ﷻ (المرجفون في المدينة) وهم الذين يولِّدون الأخبار الكاذبة التي يكون معها اضطراب في الناس. وفي البحر المحيط قول ابن عباس رضي الله عنه: المرجفون ملتمسو الفتن. وقال قتادة: الذين يؤذون قلوب المؤمنين بإيهام القتل والهزيمة[٢].

❁ ❁ ❁

فالمعوِّق لفظ عام: جامع للمُخذِّل والمُرجِف. والقصد واحد: وهو إعاقة المسلمين عن الجهاد لأغراض مختلفة. أما التخذيل وحده فيظهر أن استخدامه يكون لمن استعمل صيغة مُحاجَّة تخاطب العقل بصورة خادعة فتنشر الخمول والتكاسل والجبن في النفوس في محلٍّ ثابتٍ بعيد عن العدو غالبا، كمن يقول لك لا طاقة لنا بالذهاب إلىٰ العدو وملاقاته. بينما الإرجاف يخاطب النفوس مباشرة دون ضرورة لوجود أسس عقلانية أو حقيقية -فيكون أثره أضعافا مضاعفة، لأنه في أكثر الوقت يجيء أثناء معركة قائمة بالفعل. كمن يصرخ أثناء المعركة: قد هُزمنا! فلننسحب!

---

(١) لسان العرب: مادة رجف، ٩/ ١١٢: ١١٣.

(٢) البحر المحيط في التفسير. أثير الدين الأندلسي، ٨/ ٥٠٥.

وإرعاب قلوب المؤمنين في أي حال شيء كريه ثقيل واجب الكف عنه، أتذكر دائما حادثة أبي زبيد الطائي النصراني مع عثمان بن عفان ﵁، عندما طلب منه الخليفة أن يصف الأسد فرسم بألفاظه الثقيلة صورة عاتية مخيفة، حينها قاطعه عثمان ﵁ قائلا: اسكت، قطع الله لسانك! فقد رعبت قلوب المؤمنين![1].

❁ ❁ ❁

المعوِّقون عند الفقهاء:

حرص جمهور الأئمة الفقهاء والشافعية تحديدا علىٰ تبكيت المُخذِّل أو المُرجِف في الجيش، وقالوا برفض الإسهام له أو إعطائه شيئا من الغنائم ولا حتىٰ سلب القتيل الذي قتله!

ويجب ملاحظة أن من يتحدث عنه الأئمة: هو الجندي الذي خرج للجهاد بالفعل لكن فيه طبع التخذيل والإرجاف في جيش المسلمين. والظاهر أنهم لم يكونوا يتحدثون في أحكامهم عن القاعد المُعوِّق الذي وظيفته التخذيل عن كل جهاد سواء دفع أو طلب، فكما طالعنا كانت هذه هي وظيفة المنافقين في عهد النبي، ولم يكن من الطبيعي أن يتخيَّل الأئمة الفقهاء وجود منتسب للإسلام، فضلا عن أن يكون شيخا ومعدودا وسط فقهاء المسلمين: وظيفته الرئيسية عمليا

---

(١) طبقات فحول الشعراء: ٥٩٩. ت: الأستاذ محمود شاكر.

هي تخذيل المسلمين عن كل قتال وجهاد مطلقا، وحثهم علىٰ القعود بكافة السبل، بحجج كثيرة مثل ترك صراعات السلطة أو غياب الإمام والراية أو تفضيل طلب العلم الشرعي، إلخ!

وسنجد الإمام أحمد ينهر بشدة من تحجج بجور أئمة العباسيين لرفض الجهاد تحت رايتهم. لذا فما ننقله هنا من أحكام شرعية، إنما جاءت في المُجاهِد/المعوِّق (المُخذِّل/المُرجِف) فوجب الانتباه، فعلىٰ الأقل هذا مُجاهد خرج للقتال بالفعل!

وإنما ننقل تلك الأحكام وكلام الأئمة والفقهاء من كتب الفقه ليعلم المسلم حجم جناية هذا المُخذِّل وضرورة عقابه، حتىٰ لو كان يُقاتِل بالفعل، فماذا عمن لا يفعل ولا يريد من غيره أن يفعل متتبعا في ذلك سيرة المنافقين مع النبي والمسلمين!

❁ ❁ ❁

يمكن اعتبار كلام الإمام الشافعي هو عمدة الحديث الفقهي المنقول عن حُكم المُخذّل ورفض أن يسهم الإمام معه ورفض استعانة الإمام به في الجهاد ابتداء، فيقول: «من شُهِر بمثل ما وصف الله تعالىٰ المنافقين: لم يحل للإمام أن يدعه يغزو معه، ولم يكن لو غزا معه أن يسهم له، ولا يرضخ؛ لأنه ممن منع الله ﷻ أن يغزو مع المسلمين لطلبته فتنتهم وتخذيله إياهم وأن فيهم من يستمع له بالغفلة والقرابة والصداقة وأن هذا قد يكون أضر عليهم من كثير من

عدوهم . . ولما نزل هذا علىٰ رسول الله ﷺ لم يكن ليخرج بهم أبدا، وإذا حرم الله ﷻ أن يخرج بهم -فلا سهم لهم لو شهدوا القتال، ولا رضخ، ولا شيء؛ لأنه لم يحرم أن يخرج بأحد غيرهم»[1].

نلحظ أن أهم النقاط هي الإشارة لأسباب سريان التخذيل والإرجاف: الغفلة والقرابة والصداقة!

والمتأمِّل لكيفية سريان كلام المُعوِّقين يعلم يقينا فطنة الإمام وبلاغته في تلك اللمحة الدقيقة الموجزة.

وقد امتد هذا الحديث عند الأئمة الشافعية كالماوردي، والجويني. فيقول الإمام الماوردي شرحا لكلام الإمام الشافعي: «ينبغي للإمام أن يتفقد الغزاة إذا خرجوا حتىٰ يغزو من يرجىٰ نفعه، ويرد من يخاف ضرره، لقول الله تعالىٰ: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧]. فيه تأويلان؛ أحدهما، يعني: فسادا. والثاني: اضطرابا. ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٨]. فيه تأويلان؛ أحدهما: لأوقعوا بينكم الاختلاف. والثاني: لأسرعوا في تفريق جمعكم. ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧]. فيه تأويلان؛ أحدهما: الهزيمة. والثاني: التكذيب بوعد الرسول. ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]. فيه تأويلان؛ أحدهما: وفيكم من يسمع كلامهم

(١) الأم. الإمام الشافعي، ٤/ ١٧٥.

ويطيعهم. والثاني: وفيكم عيون منكم ينقلون إليهم أخباركم.

فإذا ثبت هذا -فمن ذوي الأضرار المردودين من الغزو مع المسلمين من ذكره الشافعي وهم ثلاثة أصناف: أحدها: من ظهر منه تخذيل المؤمنين بما تضعف به قلوبهم من تكثير المشركين وقوتهم، وتقليل المؤمنين وضعفهم. والإخبار بما يخاف من شدة حر أو برد أو عطش أو جدب، وبما جرىٰ مجرىٰ هذه الأمور التي تضعف بها القلوب وتفضي إلىٰ الهزيمة. والصنف الثاني: من يُرجِف بالمؤمنين فينجو بهزيمتهم أو بمدد يرد بعدوهم أو بكمين لهم وراءهم، أو أنهم قد ظفروا بأسرىٰ أو سبوا ذراري أو قطعوا ميرة وما جرىٰ مجرىٰ هذه الأراجيف التي تفضي إلىٰ الفشل والوجل. والصنف الثالث: من يكون عونا للمشركين بإطلاعهم علىٰ عورات المؤمنين وإرشادهم إلىٰ أسباب الظفر وتحذيرهم من وقوع الضرر وإيواء عيونهم إذا وردوا والذي عنهم إذا ظفروا إلىٰ ما جرىٰ مجرىٰ هذه المعونة لهم القوية لأمرهم فترد هذه الأصناف ومن شاكلها، لأن المقصود من الانتفاع بهم معدوم، والمخوف من الضرر بهم موجود.

فإن قيل: فقد كان يغزو أمثال هؤلاء من المنافقين مع رسول الله ﷺ فيقرهم ولا يردهم فهلا وجب الاقتداء به فيهم؟ قيل: لأن الله تعالىٰ قد خص رسوله من ذلك بأمرين عدما فيمن بعده من الولاة؛ أحدها: ما يوحىٰ إليه من مكر المنافقين فيحترز منه. والثاني: اختيار أصحابه بقوة الإيمان وتصديق الوعد. فإن شهد أحد

هؤلاء الوقعة لم يسهم له ولم يرضخ -لمعصيته بالحضور وخروجه به من أهل الجهاد»[1].

ويقول الإمام الجويني: «يحرم علىٰ الإمام أن يستصحب متخذِّلا: وهو الذي يحسّر القلوب، ويلقي الأراجيف، ويصرف قلوب المقاتلة عن القتال. وشرُّ مثل هذا الرجل ليس بالهين؛ فإن النفوس مائلة علىٰ وفق الطباع، فيخشىٰ أن يُتَّبع. ثم إذا حضر المخذل بنفسه: ردّه الإمام. فإن اتفق حضوره، وهو مشهور بالتخذيل، فقائلٌ: لم يستحق سهما ولا رضخا، ولو قتل قتيلا من الكفار لم يستحق سَلَبَه -فإنه ممنوع عن حضوره، فلا يستحق بحضوره، ولا بما يستحقه في حضوره شيئا.

فإن قيل: قد ردّد الشافعي قوله في الفرس الضعيف الأعجف الرَّزَاح، وإن استحقاق سهم الفارس هل يتعلق به؟ وقد نص الشافعي علىٰ أن الإمام يمنع من أدخل دارَ الحرب مثلَ هذا الفرس، ثم اختلف قوله في استحقاق السهم به، فهلاّ أجريتم هذا التردّد في المخذِّل؟

قلنا: ضرر المخذل عظيم! وأدنىٰ ما يُعاقَب به أن يُحرَمَ فوائدَ المغانم . . وأما الفرس إذا حضر، فلا ضرر، وقد يقع التهيب به إذا وقع في الصف، فتردّد القول لذلك. والمخذِّل لو تاب -فتوبته مقبولة، ولكن لا بد من استبرائه ليعود إلىٰ استحقاق السهم، وذلك

---

(١) الحاوي الكبير. الماوردي، ١٤/ ١٢٩.

ممكن بأن يمتحن في السرّ والعلن»[١]!

فيتفق الإمامان في خطورة المُخذِّل وكارثية وجوده في الجيش . . وإن كانا لم يستعرضا سبب سريان التخذيل الذي عرضه الإمام الشافعي . . وقد بيَّن الإمام الماوردي خطأ من يستدل بحضور المنافقين للغزوات وعدم منع النبي إياهم كي يبيح ذلك للإمام، وسيذكر الإمام الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية أن من جملة المهام علىٰ الأمير عندما يغزو أن يُخرِجَ المخذلين . . بينما بيَّن الإمام الجويني خطأ من يدافع عن إباحة الإسهام للمُخذِّل.

فهذا هو الثابت عند الأئمة الشافعية من المتقدمين حتىٰ المتأخرين منهم[٢].

❀ ❀ ❀

وقد نقل الإمام ابن قدامة في المُغني ذلك الحوار بين الإمام أحمد ومستفسر عن صحة حجة أقوام رفضوا الجهاد مع العباسيين لأن منهم ولاة جور وظلم، فكان رده كالآتي: «قال أبو عبد الله وسُئِل عن الرجل يقول: أنا لا أغزو ويأخذه ولد العباس! إنما يوفر الفيء عليهم!

---

(١) نهاية المطلب في دراية المذهب.الجويني، ١٧/ ٤٢٦.

(٢) البيان للعمراني: ١٢/ ١١٦. والغرر البهية في شرح البهجة الوردية. زكريا الأنصاري، ٤/ ٨٦.

فقال: سبحان الله!

هؤلاء قوم سوء!

هؤلاء القعدة، مثبطون جهال!

.. أرأيتم لو أن الناس كلهم قعدوا كما قعدتم، من كان يغزو؟!!

أليس كان قد ذهب الإسلام؟! ما كانت تصنع الروم؟!

وقد روىٰ أبو داود، بإسناده عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الجهاد واجب عليكم مع كل أمير؛ برا كان، أو فاجرا**».

وبإسناده عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث من أصل الإيمان؛ الكف عمن قال: لا إله إلا الله، لا نكفره بذنب، ولا نخرجه من الإسلام بعمل، والجهاد ماض منذ بعثني الله إلىٰ أن يقاتل آخر أمتي الدجال، والإيمان بالأقدار**».

ولأن ترك الجهاد مع الفاجر يفضي إلىٰ قطع الجهاد، وظهور الكفار علىٰ المسلمين واستئصالهم، وظهور كلمة الكفر، وفيه فساد عظيم، قال الله تعالىٰ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]»[1].

---

(١) المُغني. ابن قدامة المقدسي، ٩/ ٢٠٠.

وبعد ذلك الحوار قال الإمام ابن قدامة:

«لا يستصحب الأمير معه مُخذِّلا: وهو الذي يثبط الناس عن الغزو، ويزهدهم في الخروج إليه والقتال والجهاد، مثل أن يقول: الحر أو البرد شديد، والمشقة شديدة، ولا تؤمن هزيمة هذا الجيش . . وأشباه هذا.

ولا مُرجِفا، وهو الذي يقول: هلكت سرية المسلمين، ومالهم مدد، ولا طاقة لهم بالكفار، والكفار لهم قوة، ومدد، وصبر، ولا يثبت لهم أحد. ونحو هذا. ولا من يعين علىٰ المسلمين بالتجسس للكفار، وإطلاعهم علىٰ عورات المسلمين، ومكاتبتهم بأخبارهم، ودلالتهم علىٰ عوراتهم، أو إيواء جواسيسهم. ولا من يوقع العداوة بين المسلمين، ويسعىٰ بالفساد؛ لقول الله تعالىٰ ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦] ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧].

ولأن هؤلاء مضرَّة علىٰ المسلمين، فيلزمه منعهم.

وإن خرج معه أحد هؤلاء: لم يُسهِم له ولم يرضخ وإن أظهر عون المسلمين -لأنه يحتمل أن يكون أظهره نفاقا، وقد ظهر دليله، فيكون مجرد ضرر، فلا يستحق مما غنموا شيئا. وإن كان الأمير أحد هؤلاء: لم يستحب الخروج معه؛ لأنه إذا منع خروجه تبعا، فمتبوعا

أولىٰ، ولأنه لا تؤمن المضرة علىٰ من صحبه».

❊ ❊ ❊

وقد وبَّخ الإمام ابن تيمية هؤلاء المُخذلين والمُرجفين في رسالته التي كتبها عند قدوم التتار إلىٰ حلب بطرق شتىٰ . . وقسَّم الناس إلىٰ ثلاثة أقسام بالنسبة لجهاد الدفع المُتعيّن فقال:

«واعلموا -أصلحكم الله- أن النبي ﷺ قد ثبت عنه من وجوه كثيرة أنه قال: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلىٰ قيام الساعة**» وثبت أنهم بالشام. فهذه الفتنة قد تفرق الناس فيها ثلاث فرق:

الطائفة المنصورة: وهم المجاهدون لهؤلاء القوم المفسدين.

والطائفة المخالفة: وهم هؤلاء القوم ومن تحيز إليهم من خبالة المنتسبين إلىٰ الإسلام.

والطائفة المُخذِّلة: وهم القاعدون عن جهادهم؛ وإن كانوا صحيحي الإسلام.

فلينظر الرجل أيكون من الطائفة المنصورة أم من الخاذلة أم من المخالفة؟ فما بقي قسم رابع!»(١).

وقد استرسل الإمام بعد هذا في ذكر مواقف المخذلين

---

(١) مجموع الفتاوىٰ. ابن تيمية، ٢٨/ ٤١٦.

والمرجفين وتبيان مسالكهم ومحاجاتهم ومشابهتها لما جرىٰ في غزوة الأحزاب، فذكر -كعادته- كلاما منيرا.

❀ ❀ ❀

وقد قال الإمام ابن حزم الظاهري: «اتفقوا أن للفارس الحر البالغ المسلم العاقل الذي لم يدخل تاجرا ولا أجيرا ولا أرجف بالمسلمين ولا خذَّل في غزاته تلك وكان فرسه جيدا ليس ببرذون وكان غنيمة عسكر لا غنيمة حصن ولا في بحر سهمين: سهما لفرسه وسهما له»[1].

فالإمام ينقل الإجماع علىٰ عدم صحة الإسهام للمُخذِّل أو المُرجِف ممن حضر القتال. فإن كان من هؤلاء -كان هذا فقدا لشرط ومانعا من صحة الإسهام له .. ولم يُعقِّب علىٰ هذا الإمام ابن تيمية بنقد.

فهذا نقل لاتفاق العلماء من كافة المذاهب علىٰ احتقار المُخذِّل والمُرجِف وضرورة قمعه حتىٰ لو كان مشاركا في الجهاد والقتال!

❀ ❀ ❀

بذا يكون المدخل قد وضح هوية من سنتحدث عنهم وحكمهم الشرعي، وصرنا جاهزين لبدء الرحلة في الكتاب مع القسم الأول منه: المُعوِّقون في مغازي النبي.

(١) مراتب الإجماع. ابن حزم الظاهري، ١/١١٦.

القسم الأول

المُعَوِّقون في مغازي النبي

تمهيد

بعد تمام هجرة النبي ﷺ وصحابته إلىٰ المدينة، وتمام التحيُّز بعصبة منيعة في مكان يأمنون فيه التدبير واستعماله كقاعدة انطلاق للغزوات، بدأت الحركة العسكرية فورا دون تأخير .. فكانت الغزوات الابتدائية ثم بدر صعودا بيِّنا وإعلانا أن عهد الصدام الملحمي قد بدأ حقا ولم ينته بهذا الانفصال المؤلم. هكذا جاء في أعقاب بدر انتقام قرشي مُجهَّز هذه المرة بصورة جيدة وتفوق عسكري مناسب جدا، وكان هذا هو بدايات معركة أحد، وبداية العمل التخذيلي المنظم.

❁ ❁ ❁

الفَصْلُ الأَوَّلُ

أُحُد النكبة

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]

كان المسلمون في أفضل حالاتهم النفسية بعد غزوة بدر الكبرىٰ، ثقة عالية بالنفس وجذل بالنصر الرباني العظيم ومقتل جمع من طواغيت قريش وعلىٰ رأسهم أبو جهل اللعين، أكثر من آذاهم وآذىٰ نبيهم في مكة قبيل الهجرة.

تميزت التحركات العسكرية خلال العام الثالث -ما بعد ضربة بدر الموجعة لقريش- بالجرأة وتحقيق انتصارات محدودة، لكنها استراتيجية ومعنوية بالدرجة الأولىٰ.

قمة تلك الانتصارات العسكرية تمثلت في طرد يهود بني قينُقاع عقب حصارهم، لما صنعوه بالمرأة المسلمة التي تجرأوا عليها وكشفوها. وقد كانوا أشد يهود جرأة علىٰ المسلمين ووقاحة مع النبي، حتىٰ قالوا له ذات مرة: لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس![1]

ثم تلىٰ ذلك انتصار معنوي صادم ضد وقاحة اليهود وتحديهم، ألا وهو اغتيال كعب بن الأشرف، ذاك اليهودي الذي كان يهجو النبي ويدعو قريشا وكل الناس لقتاله والقضاء علىٰ دعوته، ثم ما أعقب ذاك الاغتيال من قرار للنبي أرهب به اليهود وقمع دناءتهم التي وصلت للمزاح بكشف سوأة امرأة من المسلمين وقتل من دافع عنها

(١) سيرة ابن هشام. ت:السقا ٢/ ٤٧.

واشتداد حملتهم الإعلامية ضده في كل مكان، فكان أمر النبي بعد قتل ابن الأشرف: (من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه)[١] فكانت النتيجة الطبيعية حكاية صحابي بأنه (قد خافت يهود لوقعتنا بعدو الله، فليس بها يهودي إلا وهو خائف علىٰ نفسه)[٢].

وبذا توقفت -إلىٰ حين- الحرب الإعلامية العلنية الوقحة المستهترة ضد النبي، ولجأ يهود لطي العداوة الظاهرة والرجوع عن اللعب الصريح الجريء ضد الرسول والمسلمين.

في المقابل كانت قريش تموج بالغضب والحزن لمقتل صناديدها في معركة بدر التي كانت مفاجئة. ولم تكد تستقر، لاعقة جراحها تجهيزا لجولة ثأر من النبي، حتىٰ زادهم الله نكالا بضربة اقتصادية موجعة صنعتها سرية القَرَدَة التي أجهزت علىٰ قافلة عملاق كفر قرشي آخر: صفوان بن أمية.

وضُيّق بهذه الضربة علىٰ قريش أيما تضييق اقتصادي، بتأكيد قطع طريق الشام تماما حتىٰ غار أحد رافدي نهر رأسمال قريش: التجارة!

هكذا كانت قريش تفور غيظا وتكافح اختناقا معنويا وعسكريا وماديا، فكان انفجار هذا الكبت في شكل الزحف الأول إلىٰ

---

(١) سيرة ابن هشام. ٢/ ٥٨.

(٢) البداية والنهاية. ط. هجر ٣/ ١٥.

المدينة. جمع ضخم ينوي قصم المسلمين انتقاما لهزيمة بدر وفكّا للحصار الاقتصادي.

فكانت معركة أُحُد!

❀ ❀ ❀

إن أبرز ما يهمنا في تلك المعركة التي انقلبت نكبة موجعة للمسلمين، هو رصد الحالة المعنوية للأجناد من الجانبين، ومتابعة المخذلين والمرجفين وصنيعهم في الجانب الإسلامي. والمقدمة الموجزة السابقة واجبة لاستيعاب العوامل المؤثرة وقت المعركة، ثم مقارنتها بحال الجانبين حين يحين موعد معركة الأحزاب التي ستجري تلو النكبة بعامين. وضرورية كذلك لإدراك سبب غياب التخذيل عن الأولىٰ قبل الظهور علىٰ استحياء في نهايتها. مقارنة بفوران التخذيل والإرجاف طوال الثانية!

كان زحف قريش بحوالي ثلاثة آلاف ومائتي جندي وفارس، مصطحبين معهم نساءهم وأطفالهم في مؤخرة الجيش، دعما معنويا لتثبيت القلوب، وغلقا كذلك طريق الهروب الخلفي: إما الكل أو لا شيء.

أول إرجاف حدث بالمدينة وقت أُحُد كان من اليهود والمنافقين، ولم يكن خبر قدوم قريش قد عُرف لغير النبي ودائرة ضيقة معه، فقال سعد بن الربيع للنبي: قد أرجفت يهود المدينة

والمنافقون وقالوا ما جاء محمدا شيءٌ يحبه[1].

وقد حرص النبي ﷺ علىٰ منع نشر الإرجاف بكل السبل، فكان كل نبأ يحتمل صيرورته نواة لكلام المرجفين يعمد إلىٰ طيه ثم إعلانه في الوقت المناسب إن كانت هناك ضرورة لإظهاره.

ثم أنه إن أظهره جعله ممزوجا بتقوية القلوب والنفوس بالحق وبما يثير الاستبشار رفعا للعزيمة بوعد الله. وهذه نقطة هامة لأن البعض في تلك الأيام صار يعتقد أن كتمان الإرجاف يكون بنشر أخبار كاذبة ووعود بغير المستطاع أحيانا من انتصار آني دنيوي. ولم يكن هذا منهاج النبي علىٰ الإطلاق في كتم أساليب الإرجاف. وأثر الكتمان بهذا الأسلوب المعاصر هو فقدان مصداقية قيادات المؤمنين مُستقبلا لصالح الجهة الأكثر مصداقية، والتي قد تكون جهة العدو نفسه، وهنا تصبح هذه المصداقية أداة هجوم في أيدي الكافرين ليتلاعبوا كما يشاؤون بالمسلمين التابعين فاقدي الثقة بقياداتهم التي أعملت حيل ليست من هدي النبي.

فلم يعمد إلىٰ نشر خبر زحف المشركين حتىٰ انتشر بين الناس. وحين بعث الحباب بن المنذر يستطلع عدد جنود العدو وحالهم ألزمه ألا يخبره بين أحد من المسلمين إلا أن يرىٰ قلة عدد الزاحفين، فلما رأىٰ جموعهم رجع فأخبره بجحافلهم الضخمة سرا.

---

(١) مغازي الواقدي. ١/ ٢٠٤.

فهذا كان أول إرجاف، وذاك كان منهاج النبي في مدافعته: كتمان ما قد يستغله المرجفون أسوأ استغلال لتوهين عزم المسلمين.

ثم كانت رؤيا للرسول أخبر بها الناس. لكنها لم تكن مشرقة تماما!

هناك شيء سيحدث!

استشار النبي أصحابه والجمع، فانقسم الناس إلىٰ رأيين: أما الرأي الأول فقد كان ما يميل إليه النبي وأكابر الصحابة من المهاجرين والأنصار حتىٰ استحسنه أبي بن سلول؛ بل يقال أنه كان هو الذي عرضه وتعصب له وتشدد له: ألا وهو تحصين المدينة جيدا وخوض قتال شوارع ضد غزو قريش إن فكَرت في التعمُّق بداخل أحيائها.

والرأي الثاني كان لفتيان أحداث لم يشهدوا بدرا ورغبوا في الشهادة وأحبوا لقاء العدو وتمنوه: الخروج لملاقاة الأعداء خارج المدينة حيث ربضوا بانتظار المسلمين. وقد قوي هذا الرأي بتبني نفر من كبار الصحابة له مثل حمزة بن عبدالمطلب وسعد بن عبادة رضي الله عنهما.

كانت حجج طالبي الخروج مليئة بالحماس والاستهتار بالعدو والقتال. وكان واضحا أن أصل فورة الغليان تلك هو ما جرىٰ في بدر وما بعدها من انتصارات، لم يكونوا يعرفون وقتها طعم الهزيمة!

وانتشر الحماس في الأجواء -فكان الرأي الثاني. وأخذ به رسول الله لما رأىٰ الجمع الغفير يلح عليه. ولما كان واضحا أن

الرسول لم يرتح لهذا القرار ولم يستعد ويلبس سلاحه إلا لأنه ما استقرت عليه الشورىٰ؛ فإن الذين طالبوه به أولا فكَّروا فيما صنعوه ثم حاولوا الاعتذار للنبي عن إلحاحهم وطلبوا منه أن يصنع ما كان يرىٰ صحته؛ فرفض قائلا: ما ينبغي لنبي إذا أخذ لأمة الحرب وآذن بالخروج إلىٰ العدو أن يرجع حتىٰ يقاتل، وقد دعوتكم إلىٰ هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج، فعليكم بتقوىٰ الله والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو انظروا ما آمركم به فافعلوه[1] ..

إذن قد قُضي الأمر من الشُجاع العظيم: هو الخروج فالقتال. وتقدمت المشورة علىٰ ميل النبي وكبار صحبه أنفسهم. وفي هذا درس هائل ليس هنا موضع نقاشه!

إذن القوة العسكرية كانت كالآتي: سبعمائة جندي مسلم، كانوا ألفا في البداية قبل أن ينخذل السلولي وينسحب بثلاثمائة[2]. وفي الجهة الأخرىٰ أكثر من ثلاثة آلاف جندي من المشركين!

❀ ❀ ❀

برغم الفارق الكبير بين الجيشين إلا أن الإرجاف كان قليلا كما رأينا، في حين انعدم التخذيل!

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي. ٣/ ٢٠٨.

(٢) دلائل النبوة ٣/ ٢٠٨.

كانت الحالة المعنوية في بداية أُحُد حاجزا أمام انتشار محاججات المخذلين وطعنات المرجفين.

وهذا هو أهم عامل لوأد التخذيل والإرجاف وقمعهما: الروح المعنوية المرتفعة.

❀ ❀ ❀

لكن، وأثناء المعركة نفسها، وبينما كانت الريح تجري بما تشتهي السفن، وقعت طامة مفاجئة بسبب الإرجاف، إذ نعق ناعق مجهول بأن الرسول قد قُتل، فعطف المسلمون يقتل بعضهم بعضا وهم لا يشعرون وانهزم طائفة منهم إلىٰ جهة المدينة وتفرق سائرهم ووقع فيهم القتل بينما ثبت نبي الله حين انكشفوا عنه(١).

هكذا انقلبت الحالة المعنوية من الجذل والصمود، بسبب ناعق مرجف واحد، إلىٰ الاضطراب فالانكسار! كل هذا بإشاعة كاذبة واحدة عن مقتل الرسول، أرجفت قلوب المسلمين وفتت في عضدهم فحولت مسار المعركة من تقدم مظفر للمسلمين في البداية إلىٰ عقر الجياد في النهاية!

بيد أن ستر الله أوقف السقوط ووهَّن قلوب المشركين عن تتبع المسلمين لداخل المدينة.

---

(١) فتح الباري. ابن حجر، ٣٤٦/٧.

فخسائرهم كانت ضخمة أيضا، فانسحبوا قافلين إلىٰ مكة، بعدما تواعد أبو سفيان زعيم قريش وأحد قادة جيشها مع النبي، علىٰ اللقاء في بدر مرة أخرىٰ بعد عام يتجهز كلا منهما فيه.

حينها سيثأر أبو سفيان لبدر الأولىٰ الكبرىٰ. أما اليوم فيكفيه ما أحرزه من نصر معنوي!

أخيرا. وبعد عودة الجيش المكلوم إلىٰ المدينة، كانت في الوحل الحالة المعنوية، فبينما يدخل النبي ﷺ أزقة المدينة؛ إذ بالنوح والبكاء في الدور. فقال: ما هذا؟ قالوا: هذه نساء الأنصار يبكين قتلاهم . . . فقال رسول الله ﷺ حين سمع البكاء: لكن حمزة لا بواكي له![1] . .

هنا فقط . . ووسط هذا الجو المُقبِض: بدأ بصق التبكيت والتخذيل انثيالا من أفواه المُعوِّقين!

فمنه ما جاء في فتح الباري أن قد سُرَّ المنافقون وظهر غش اليهود وفارت المدينة بالنفاق، فقالت اليهود: لو كان نبيا ما ظهروا عليه! وقالت المنافقون: لو أطاعونا ما أصابهم هذا![2].

(١) دلائل النبوة: ٣/ ٢١٦.

(٢) فتح الباري. ٧/ ٣٤٧.

هكذا اهتم اليهود بنشر مُحاجَّة تدعم الجانب الذي كانوا يرغبون في إظهاره: توكيد كذب ادعاء الرسول للنبوة .. ومفاد زعمهم هذا أنه لا يُهزَم نبي؛ فمحمد كاذب النبوة إذ هُزِم جيشه!

ويالفجر الخصومة وياللمغالطة مفضوحة واستغلال جهل المسلمين بتفاصيل التوراة اليهودية! أليس كتابهم المقدس هذا هو المكتظ بأخبار ابتلاءات الأنبياء؛ أليس فيه تيه بني إسرائيل وفيهم نبي الله موسىٰ أعظم أنبيائهم الذين يدعون قيامهم علىٰ صيانة شريعته؟!

فلم لم يتقولوا علىٰ موسىٰ عليه السلام أن لو كان نبيا ما دخل بنو إسرائيل معه التيه؟!

أليس فيه سجن يوسف عليه السلام وعدم خروجه بمعجزة؟ فلم لم يُخرجه الله من حبسه في نفس الليلة وهو نبي؟

أليس فيها عجز يعقوب عليه السلام عن معرفة مكان ابنه، أليس فيها حزنه حتىٰ ضياع بصره، رغم أنه نبي؟ أليس هذا نبيّا قد ضاع منه نبي؟! فلم لا يقولون لو كان نبيّا ما ابتلي وهزم عاجزا عن معرفة موضع ابنه؟

وفي الحديث الصحيح بلفظ الترمذي، أنه عندما سُئِل رسول الله عن هوية أشد الناس بلاء، قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيُبتلىٰ الرجل علىٰ حسب دينه -فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقّة ابتُلي علىٰ حسب دينه، فما يبرح البلاء

بالعبد حتىٰ يتركه يمشي علىٰ الأرض ما عليه خطيئة.

أما سقوط الأنبياء المتكاثر أثناء معارك وحروب بني إسرائيل المتطاولة؛ فحدث ولا حرج. والقوم أصلا لا ينزهون أو يقدسون أنبيائهم ولا رسلهم ولا يستنكفون أن ينسبوا إليهم فواحش وزلات فاجرة بل هم لا ينزهون إلههم نفسه عن البكاء والانكسار ندما وحزنا؛ لكنهم هنا -فجأة- صاروا يرون أن النبي لابد أن يكون معصوما عن الهزيمة والانكسار! فلم انكسرتم ووقعتم في الشتات والذل إن كان حقّا علىٰ الله نصرة الأنبياء والمؤمنين في (كل) موضع بعينه؟! ولو كان كل نبي منصور أبدا وحتما في كل معركة لأصبحت حياته سلسلة من الانتصارات والنجاحات المتواصلة بلا عوائق، ولصار كل نبي حاكما للكرة الأرضية بأقل جهد دعما من القادر علىٰ أن يقول للشيء كن فيكون! فما وجه الابتلاء هنا وما وجه العبادة التي خلقنا رب العالمين من أجلها؟! بل وما فائدة تعدد الأنبياء أساسا؟! وما فائدة ذكر قصصهم في كتب أهل الكتاب والمسلمين ما دام كل جديد سيحكم الكرة الأرضية بسهولة فيفرض علىٰ الناس معرفة ذكر (ملوك الأرض) السابقين؟!

إن سنن الله الكبرىٰ في الكون تُسيِّر خطة عظمىٰ نادرا ما تستوعبها عقول البشر القاصرة معرفيّا علىٰ عصرها وماضيها دون مستقبلها، وعلىٰ عوامل محدودة مهما ظنوا أخذهم في حسبانهم كل العوامل، وكم من هزائم وسقطات كبرىٰ جرت في تاريخ المسلمين

ثم استبدل الله بها لهم نصرا مؤزَّرا في موضع آخر وزمن آخر. ولا يعزب عن فطن ما في هذه الحجة من استغلال لرؤية طوباوية كاذبة، وتفصيل هذا سيكون في كتاب الإسلاموطوبيا لأن تفسيره يطول.

إن حجة اليهود تلك كان يمكن استيعابها إن أوردها جمع ملحد أحمق لا يؤمن بإله للكون، وليس عنده كتابُ ذِكرِ الأنبياء وابتلاءاتهم. لكن من ينتظر إنصافا من يهود؟!

وليست هذه الحجة بالغريبة عن زماننا، وهي أصل في الفكرة لما يسري بعد كل سقطة أو هزيمة تجري للمؤمنين في زماننا: ألسنا علىٰ الحق؟ إذن لماذا ننهزم؟!

هذه الإسلاموطوبيا التي تعتقد واقعا ليس بالموجود وتنتظر مستقبلا قريبا متوقعا ومرسوما تتسبب في نتيجتين أخرتين حين الهزيمة، متناقضتين مع ذلك: الأولىٰ هي الاستغراق في إنكار الهزيمة والواقع، وهو ما لم يجر في أحد مثلا. لم يجتمع المسلمون في المدينة قائلين في استهزاء أننا انتصرنا اليوم معددين أوجها مختلفة لوجهات نظر متعددة متفلسفين ومبررين؛ بل كان واقع الحال مُغنٍ عن أي قول. واستغراق المستغرقين هؤلاء نابع من تصورهم أنه لا يمكن هزم المؤمنين أبدا في صراعهم ضد الطغيان؛ ناسين أو متناسين هزم الحسين من قبلهم! وهذا التوقع الطوبوي المتفائل عجيب، وهو عبء كبير عليهم، إذ أن أكثر كبار علماء السياسة في عصرنا مثل بورتشيل

ولينكلتر يؤكدون عجز أي نظرية سياسية عن تقديم تفسير وفهم كامل لديناميات العلاقات السياسية الدولية وبنياتها[1]، وفشل النظريات السياسية، وعلىٰ رأسها النظرية الواقعية نفسها -الأكثر رواجا- في تقديم تنبؤات صحيحة في كثير من حوادث العالم والتاريخ، وهو ما دفع الأستاذ جاك دونللي علىٰ التصريح بأنه ليس السؤال المناسب الذي نضعه في وجه أي نظرية هو ما إذا كانت تصف العالم بدقة[2] بل غاية ما نرجوه من النظريات الحالية هو تقديم رؤىٰ تساعدنا في فهم العناصر الأساسية! هذا جزء من كلام كثير يوضح سخافة التنبؤات المتفائلة بصورة دائمة والتي تصل لحد الجزم اليقيني بالنصر. إن تنبؤك بناتج معركة معيَّنة أو صراع معيَّن علىٰ المدىٰ القصير ناشئ عن نظرية لا محالة. فإن كنت تعلم أنه لا توجد نظرية تقدم تنبؤات جازمة ولا توجد نظرية واحدة تفسر كل العالم ودينامياته البنيوية الداخلية والخارجية بوضوح؛ فكيف تثق كل هذا الثقة المؤمنة بأن أعيان الوقائع المنظورة لابد من النصر فيها؟! هذه الإسلاموطوبيا -أكرر- قد تؤدي إلىٰ إنكار الواقع الكئيب والإيمان بأن لا هزيمة إنما هو نصر دائم ومن ثم صدور التبريرات السخيفات اللواتي نسمعها اليوم وكل يوم من جماعات المقاومة المنكسرة: لا لم ننكسر، قسما بالله إننا

(١) نظريات العلاقات الدولية: ٤٣.

(٢) نظريات العلاقات الدولية: ٥٧.

منصورون، إن السجن لانتصار عظيم لو كنتم تعلمون!

وقد تحلق حولي ليلة فض اعتصام رابعة -وكنت في مقابلة سريعة مع إحدىٰ قنوات اليوتيوب بصفتي أحد المعتصمين- جمع من الإخوان يستمعون منتظرين مني كمعتصم معهم أن ألقي بيانات الحشد التعبوي المبتذلة، لكني قلت ردا علىٰ السؤال الوحيد: هل أتوقع الفض- بأن المقاومة أكبر من ذا الاعتصام وأنه حتىٰ لو حدث فض فالمظاهرات ستنتشر والمعركة معركة أجيال؛ فجحظت العيون حولي استنكارا وغيظا من الهرطقة التي أقولها! كيف سيحدث الفض؟ كيف أرجئ النصر إلىٰ جيل آخر بل إلىٰ يوم آخر؟! الآن الآن النصر ولا فض؛ فلما انفلق الصبح بأزيز الطائرات والرصاصات، واختفىٰ نصف الميدان بمجرد سريان الإشاعات قبل الفجر أفاق من أفاق! ولن أندهش أبدا إن كان بعض المستنكرين المتحمسين من حولي كانوا ممن رحلوا عنا قبل بدء الجحيم، لكن هذه فكرة أخرىٰ!

وقد تؤدي هذه الإسلاموطوبيا كذلك إلىٰ عزو كل الهزيمة للقيادة المنكسرة باعتبارها أقل إيمانا من أن ينصرها الله في كل موضع! أليس القائد -إن كان مؤمنا- واجب علىٰ الله نصره؟!! هنا ليس العزو لعجز عسكري أو تكتيكي عند القيادة بل لضعف الإيمان!

وهذه الرؤية نفسها، أي الإسلاموطوبيا، قد تتسبب في النقيض: الإلحاد! ذي إشكالية الشر الفلسفية الشهيرة مرة أخرىٰ!

لماذا ننهزم إن كنا نحن الحق أصحاب الدعم الإلهي ومن أمامنا هو الباطل عدو الله؟! إن كان ثم الله فكيف يخذلنا ويسلط أعداءه علينا بكل هذا الخسف؟

وقد رأينا في أيامنا من ألحد ومن انتحر ومن تعلمن علىٰ أقل تقدير، جراء هذه السلسلة من التساؤلات اللواتي نبعن من هذا التصور الطوبوي غير الواقعي.

إن حجة اليهود، رغم أنك قد تظنها - ظاهرا- هينة. لكنها من جنس هذه البلايا والرزايا المعاصرة؛ إن لم تكن أصلا لها!

ومنه ما جاء من المنافقين، سعيا للتخذيل بعيد المدىٰ، قولهم: لقد هُزمتم لأنكم أطعتم محمدا ولم تطيعونا! فلو فعلتم -من البقاء في المدينة علىٰ رأي السلولي، الذي صمد عليه ولم يرض بناتج الشورىٰ- ما أصابتكم هزيمة!

قد تندفع وتقول بصحة هذا الكلام في ظاهره، قائلا أن هذا كان رأي النبي في الابتداء؛ إلا أن مسير الأحداث في المعركة ينفي صحة هذا الرأي!

فقد كان المسلمون في مشارف النصر بالفعل، ولم يكن الخروج للقاء العدو ابتداء هو سبب الهزيمة المفاجئة كما استنتج هؤلاء. بل كان ذاك الخطأ التكتيكي الشهير الذي ارتكبه الرماة بترك أماكنهم -رغم نهي الرسول- لجمع الغنائم ثم استغلال خالد بن

الوليد تلك الثغرة للالتفاف حول المسلمين؛ هو السبب الأكبر بلا جدال. ثم جاءت الرجفة بإعلان مقتل النبي للإجهاز علىٰ الروح المعنوية تماما لصالح المشركين!

أما مراد هذه الحجة؛ فهو إظهار أن الحكمة لم تزل في جانب المنافقين القاعدين، وأن الرعونة كانت في جانب المسلمين. وهي حيلة نفسية قوية تجيء دائما بعد كل انكسار؛ حين يتلقاهم المنافقون والمُخذّلون بقيلهم: ألم نقل لكم لا تخرجوا؟ ألم نقل لكم ألا تقاتلوا؟ لو كنتم قد نفذتم ما أخبرناكم به بحكمتنا ما جرىٰ الذي جرىٰ من هزيمة!

هذا المستقبِل الهانئ يواجه مهزوما منكسرا هش نفسيّا لأبعد الحدود؛ فليس من المستغرب أبدا أن تلقىٰ هذه الحجة آذانا صاغية بسرعة كبيرة وانتشار واسع. ولا يصمد حينها إلا نخبة من سراة المؤمنين، وإن كان وجود النبي بين الصحب وقوة الإيمان حينها قد غلَّب الصمود والتماسك. بالإضافة لتكتيك عبقري نفذه النبي في ذات اليوم لإيقاف سريان محاجات المعوِّقين واستشراء أثرها المعنوي النتن في أنفس المسلمين؛ فخرج بالجموع فورا إلىٰ منطقة حمراء الأسد، بعد ما بلغه من تفكير جيش المشركين في العودة واستثمار نكبة المسلمين في تحقيق انتصار نهائي ساحق بداخل المدينة نفسها. خرج النبي برسالة واضحة: إنَّا لم ننكسر كما تتوهمون! فلن تفلح الإعاقات في تثبيطنا عن الخروج إليكم ومقاتلتكم مرة أخرىٰ.

وقد طالب النبي ممن حضر نكبة أحد فقط أن يخرج! حتىٰ الجرحىٰ خرجوا وقد جهزوا أنفسهم معنويا مرة أخرىٰ بسرعة شديدة للثأر مما جرىٰ؛ وهذه لفتة عبقرية أخرىٰ في ثنايا هذا الخروج: عدم الاعتماد علىٰ القاعدين الذين زادوا ارتعادا وخوفا مما جرىٰ، فاصطحابهم إلىٰ معركة ثانية يعني علو شأن التخذيل والإرجاف للذروة ووصوله إلىٰ ساحة القتال. إذن المطلوب كان إبعاد المخذلين والمرجفين من القاعدين في المعركة الأولىٰ، عن ساحة القتال. وفي نفس الوقت إبعاد المؤمنين عنهم سريعا بإثارة حميَّة الثأر فيهم وإبعادهم فورا عن الاستكانة والقعود مع هؤلاء.

كانت النتيجة الطبيعية أن قام جيش المشركين بإلغاء فكرة العودة واستمر في الانسحاب صوب مكة، لقد كان هذا التحدي النبوي مثيرا لتثبيط العدو، وانقلب بتكتيك النبي العبقري هذا التخذيل من معسكر المسلمين المنهزم إلىٰ معسكر المشركين المنتصر، بل أكثر وأكثر: تقولون -أي المخذلين- أن الخروج سبب الهزيمة، فلن نسمع كلامكم وسنخرج مرة أخرىٰ ولن ننفذ -بإصرار- كلامكم بالقعود وتنفيذ الخطة التي تزعمون أن الفلاح كان فيها!

فكفىٰ النبي بشجاعته وعبقريته أصحابه شر كارثة مستطيرة كانت لتحدث إن هم تراجعوا واستمعوا لنصائح المُخذِّلين مدعي الحكمة بعدم الخروج مرة أخرىٰ، وهو ما كان سيقوي قلب جيش قريش لمعاودة الزحف وتوجيه ضربة موجعة قد تكون هي القاصمة النهائية

المُستأصلة لدعوة الإسلام كما كانوا يرغبون، وأنزل رب العالمين الهدوء والسكينة علىٰ أصحاب النبي في حمراء الأسد انتظارا لجيش العدو، فانتشر بينهم النعاس والسكينة كأن لم تكن هناك معركة وكأنهم لا يترقبون معركة جديدة ساحقة إن كرَّ المشركون مجددا.

ومن الإرجاف الذي جرىٰ الحادثتان المذكورتان قبلا: الأولىٰ عند قدوم الجيش وقد كانت من اليهود، والثانية قاصمة حدثت أثناء المعركة نفسها وهي خبر مقتل النبي.

الأولىٰ لم تكن ذات تأثير كبير وضاعت وسط إعصار المعنويات المرتفعة؛ لكن الثانية كانت الداهية، لأنها جاءت وسط اضطراب المعركة والذعر من الالتفاف الخالدي المفاجئ؛ فكانت ذات أثر مخيف قاصم. وهذا هو أخطر مواضع الإرجاف: أثناء المعركة والالتحام بين الجيوش.

بينما نجم التخذيل عن الاستمرار علىٰ رأي النبي ودعوته -بعد الهزيمة لا قبلها. لم يكن قبل المعركة لأنه لم يكن ليصلح والنبي ظاهر علىٰ المشركين والكافرين منذ بدر فقينقاع فغيرهما. إذن كان يجب أن يظهر المُخذِّل بمظهر الحكيم العالِم وأن يوافق مرحلة فتور حماسة المجاهدين لحادث أصابهم. ولما لم يكن هذا متوفرا قبل أحد فلم يكن لتخذيلهم موضع. وسنرىٰ أنه بداية من هذه النكبة سيبدأ التخذيل القوي قبل المعارك الكبرىٰ.

❁ ❁ ❁

أما بعد تجريد الحجة اليهودية التخذيلية الأولىٰ، فستجدها أصل فكرة: عدم صحة الدين لفشل أنصاره الآني كما كتبنا من قبل! وهذه الحجة لها استخدامات أكثر مما ذكرنا وأوجه مختلفة، منها أن تكون عند المنحرفين عن دين الإسلام بالصورة الآتية: طالما هُزم المسلمون وتخلفوا حضاريا -فالسبب هو دينهم! فهذه من تلك لو تدبرت قليلا.

ويكون الحل الذي يقدمه العلمانيون هو إبعاد الدين عن الدنيا والحياة العملية وحصره في مجموعة من العبادات الفردية، والاتجاه دنيويا نحو دين إنساني عام وأممية المواثيق الدولية والقوانين الغربية المتعارف عليها، مهما كان ذلك الدين العولمي مناقض لدين الإسلام!

ثم تجد لها صورة أخرىٰ عند الفئة شبه العلمانية: وهي التي تُلقي اللوم علىٰ فهوم السلف للدين وتحاول ابتداع نسيج جديد لدين الإسلام يكون في رأيهم أكثر صلاحية لمواكبة العصر الحديث والمواثيق العلمانية المعولمة!

وكان الملحدون أكثر صراحة من هاتين الفئتين؛ فأخذوا موقفا معاديا من الدين بشكل عام لأنه بذاته سبب الهزيمة والتخلف الحضاري المزعوم، وأنا هنا أتحدث عن منصفي الملاحدة -ولا إنصاف- وإلا فملاحدة العرب أغلبهم ملاحدة مع الإسلام وقساوسة وحاخامات مع النصرانية واليهودية!

لقد حاولوا إلقاء اللوم علىٰ الأنبياء والأتباع جميعا واعتبروا الأولين مجموعة من الكذبة مدعي النبوة المستغلين. وفي رأيهم كانت الطبيعة هي الأحق بالعبادة أو التقدير لأنها المنتصر الحقيقي في الوقت الحاضر وهي ما ستؤدي إلىٰ نهاية التاريخ الإنساني في اليوتوبيا مختلفة الأشكال بتعدد الأيديولوجيات، ونقاش الأمر يطول وليس هذا موضعه إنما يكفي اللبيب الإشارة.

إن كافة هؤلاء يقولون بألسنتهم تصريحا أو تلميحا: فلتخذلوا هذا الدين ولا تتبعوا هذا النبي!

وبرغم ادعاء العقلانية؛ إلا أنه واضح جدا استخدام الألاعيب النفسية والظروف العالمية ونكسة المسلمين المعاصرة لتمرير هذه الحجة والأفكار استغلالا للانبهار الذي يأكل قلوبهم بالمنتصر الغربي أو الشرقي، أو كما يقول ابن خلدون: ولع المغلوب بالاقتداء بالغالب.

وهذه ليست المرة الأولىٰ التي نشاهد فيها هذه الحالة المتكررة، فقد رأينا في الأعصار المتأخرة للأندلس هزيمة نفسية ودينية واضحة عند ملوك الطوائف ثم مملكة غرناطه المتأخرة، ومن هؤلاء رجال كابن مردنيش الذي ذهب في محالفة النصارىٰ والتمرغ في أحضانهم منبهرا حدا جعله يضطهد المسلمين ولم يكن الأول ولا الأخير. بل وحتىٰ في أعصار التذبذب والخفوت الأموي لا الانهيار رأينا رجلا مثل عمر بن حفصون يعلن ردته عن الإسلام

إلىٰ المسيحية[1]. وفي الجهة الأخرىٰ من المتوسط رأينا كذلك عصر الصعود العثماني وكيف كان الملك الصربي ستيفان لازار منبهرا بالسادة الأتراك مشتركا معهم في معركة نيقوبوليس المفصلية تحت قيادة السلطان بايزيد الأول ضد حملة أوروبية صليبية-بيزنطية كبرىٰ[2]! وشهدنا كيف كان حال متأخري السلاجقة مع الدولة البيزنطية في عصر قوتها وخفوتهم وأخذها الجزية منهم، وكيف كان التأثير البيزنطي والقسطنطيني هو العابر للأناضول، ثم كيف انقلب ذلك في خلال قرنين عندما صار المسلمون الأتراك هم السادة العثامنة وصاروا يأخذون الجزية من بيزنطة ويؤثرون فيها وصار التأثير عابر من الأناضول للرومللي!

إذن، ففي كل الحالات يكون هذا إيمانا أو خروجا غير عقلاني من الإسلام. إنه إيمان المغلوبين بدين الغالب، إيمان نفسي طبيعي في البشر لا إيمان عقلي محايد مطلق.

والمسلمون إن لم يأخذوا بسنة الإعداد المادي (العسكري-الاقتصادي) والمعنوي الديني (التربية الإسلامية علىٰ هوان شأن الدنيا وحب الموت في سبيل الله) ويسعون للتجمع لا التفرق والمنابذة - فمصيرهم سيؤول لا محالة إلىٰ ما توعدهم الله به إن لم يطيعوه:

---

(١) طقوش، الأندلس: ٢٧٥.

(٢) طقوش، العثمانيون: ٦٢.

(وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)! فليس المسلمون بأصحاب وعد أبدي مزعوم بالنصرة طوال تاريخ الدنيا بل نبه الرسول مرارا إلىٰ أن بعد الصعود هبوط فصعود فهبوط إلخ ولن يأت زمن إلا الذي بعده شر منه -وبحسب الالتزام بدين الله في جعل الفرد المسلم والجماعة المسلمة علىٰ قدر المسؤولية، فإن حدث التهاون في أيهما فستتداعىٰ الأمم ونكون كثيرا لكن غثاء كغثاء السيل، لا فائدة منه. الأمر أبسط من تلك الحجة الكبيرة المنتقضة.

إن السنة الإلهية لن تتغير مجاملة لأحد. لقد قال رب العالمين للمنهزمين في أحد (هو من عند أنفسكم) -فلتبحثوا فيما أخطأتم فيه من ترك للسنن الإلهية ولتحاولوا الاجتهاد فيه -فمن جهز نفسه ماديا وعسكريا ومجتمعيا وفرديا لا بد أن يتفوق علىٰ غيره إن لم يقابل من يماثله!

وبهذا تفوقت الحضارات المادية المعاصرة ذات الخلفيات التاريخية المتنوعة (الغربية/ الصليبية-الشرقية/ الشركية .. إلخ) علىٰ المسلمين في القرون الأخيرة؛ بعدما جمعوا كافة أسباب الفشل التي حذر منها رب العالمين ونبيه!!

وإن عزو انتصار الأعراق التاريخية المعادية لصحة أديانهم المادية المعاصرة (كما يفعل الملحدون) أو التاريخية الكامنة في ظهر المشهد (كما يفعل النصارىٰ)، وعزو الهزيمة إلىٰ دين الإسلام غير الصحيح -هو مغالطة منطقية كبرىٰ وألعوبة شِعريَّة/ نفسية لا أكثر. فالتاريخ لا ينتهي اليوم أو الغد ومساره امتلأ بصعود وهبوط

للمسلمين وغيرهم -فالعزو هو إلىٰ الأخذ بأسباب النجاح التي نبه الله المسلمين إليها. وهي أسباب تتفق عليها البشرية جمعاء.

أما التحجج بالهزيمة الذي يقدمه المنافقون لاستخراج قاعدة تفصل المسلمين عن أوامر نبيِّهم، وهي: إما الاستماع إلىٰ منهجنا - أو هي الهزيمة!

وهي تابعة لكلامنا السابق إن جردناها .. فقط ستكون لائقة أكثر علىٰ نوع من العلمانيين:

فإما اتباع رؤيتنا المخالفة للسنة والهدي النبوي -أو هي الهزيمة!

وقائل هذا يدعي الإسلام، إنما هو فقط يُخالِف السنة ومُعجَب برأيه .. ويقنعك بأنك إن لم تتبعه في تخذيله عن اتباع المنهاج النبوي الصحيح في الحياة/ الجهاد/ السياسة -فستكون من المتزمتين/ الهالكين/ المتخلفين عن ركب الحضارة .. إلخ!

والاستخدامات المعاصرة كثيرة جدا لتلك الحجة المُجرَّدة والتي هي أيضا مغالطة منطقية واضحة: (بما أن منهجكم قد فشل الآن -فإن منهجنا بالتالي هو الصحيح) .. وكما قلنا فالعيب لم يكن في المنهج أصلا إنما في عدم اتباع المسلمين لهذا المنهج بالأساس! لقد كان العيب في عدم تنفيذ أوامر النبي في أحد لا في تنفيذ أوامر الخروج معه ومخالفة رأي القعود!

وهي بتجريدها ذاك لا تقتصر فقط علىٰ العلمانيين، بل أغلب

المُعوقين والمخذلين عن الجهاد يستخدمونها بكثرة وسنرىٰ ذلك في غزوة الأحزاب القادمة: فكم من مرة رأيت التحجج بموت المجاهدين للطعن في أصل الجهاد. انتبه لقولهم في الآية: (لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا)!

إن مقصد هؤلاء تأثيل فكرة أن القاعدين من أهل الدنيا هم أكثر حكمة من المجاهدين والدعاة المخاطرين بأرواحهم -لأنهم ينصحونهم بما يمدّ في أعمارهم والآخرون ينصحونهم بما يُهلكهم!

وهذه أحد القواعد الكبرىٰ والمقدمات الكامنة التي ينطلق منها كل تخذيل من كل مُعوِّق -فيُظهِر نفسه متباكيا علىٰ الشهداء أو عوام المسلمين المصابين بالأذىٰ، متهما بالسفه كل من يزج بهم إلىٰ مجال الجهاد والدعوة الخطرة لدين الله الكامل غير المُدجَّن وغير المرضي عنه من طواغيت الأرض!

أما مسالك الإرجاف مجرَّدة فهي: نشر الأخبار المخيفة عن مجيء جموع الكافرين لاستئصال المسلمين. ونشر خبر مفزع أثناء المعركة يُعلَم يقينا أنه سيفت في عضد المجاهدين ويدمر معنوياتهم.

❀ ❀ ❀

وقد وردت آيات عدة في شأن معوِّقي أحد. منها قول رب العالمين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ

هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال الإمام ابن كثير عن الطائفة الأولىٰ أنهم أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله سينصر رسوله وينجز له مأموله - والطائفة التي قد أهمتها أنفسها أفرادها لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف . . . هؤلاء، اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة وأن الإسلام قد باد وأهله، هذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة). وقد نقل الإمام القرطبي عن ابن عباس قوله: يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا، أي ما قتل عشائرنا. فقيل: إن المنافقين قالوا لو كان لنا عقل ما خرجنا إلىٰ قتال أهل مكة، ولما قتل رؤساؤنا.

فرد الله عليهم فقال: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ﴾ الآية . . فلو تخلفتم أيها المنافقون لبرزتم إلىٰ موطن آخر غيره تصرعون فيه حتىٰ يبتلي الله ما في الصدور ويظهره للمؤمنين!

ويقول الزمخشري: طائفة منكم هم أهل الصدق واليقين وطائفة هم المنافقون قد أهمتهم أنفسهم ما بهم إلا هم أنفسهم لا هم الدين ولا هم الرسول ﷺ والمسلمين، أو قد أوقعتهم أنفسهم وما حل بهم

في الهموم والأشجان، فهم في التشاكئ والتباث غير الحق..

يقولون لك فيما يظهرون: هل لنا من الأمر من شيء سؤال المؤمنين المسترشدين وهم فيما يبطنون علىٰ النفاق، يقولون في أنفسهم أو بعضهم لبعض منكرين لقولك لهم إن الأمر كله لله لو كان لنا من الأمر شيء أئ لو كان الأمر كما قال محمد إن الأمر كله لله ولأوليائه وإنهم الغالبون، لما غلبنا قط، ولما قُتِل من المسلمين من قُتِل في هذه المعركة.

قل لو كنتم في بيوتكم: يعنىٰ من علم الله منه أنه يُقتَل ويُصرَع في هذه المصارع وكتب ذلك في اللوح لم يكن بد من وجوده -فلو قعدتم في بيوتكم لبرز من بينكم الذين علم الله أنهم يقتلون إلىٰ مضاجعهم وهي مصارعهم ليكون ما علم الله أنه يكون. والمعنىٰ أن الله كتب في اللوح قتل من يقتل من المؤمنين، وكتب مع ذلك أنهم الغالبون، لعلمه أن العاقبة في الغلبة لهم، وأن دين الإسلام يظهر علىٰ الدين كله، وأن ما ينكبون به في بعض الأوقات تمحيص لهم وترغيب في الشهادة، وحرصهم علىٰ الشهادة مما يحرضهم علىٰ الجهاد فتحصل الغلبة).

وقال الرازي الإمام في مفاتيحه، قال أبو مسلم: من عادة العرب أن يقولوا لمن خاف، قد أهمته نفسه، فهؤلاء المنافقون لشدة خوفهم من القتل طار النوم عنهم. وقيل المؤمنون كان همهم النبي ﷺ وإخوانهم من المؤمنين، والمنافقون كان همهم أنفسهم.

وتحقيق القول فيه: أن الإنسان إذا اشتد اشتغاله بالشيء واستغراقه فيه، صار غافلا عما سواه، فلما كان أحب الأشياء إلىٰ الإنسان نفسه، فعند الخوف علىٰ النفس يصير ذاهلا عن كل ما سواها -فهذا هو المراد من قوله: أهمتهم أنفسهم؛ وذلك لأن أسباب الخوف وهي قصد الأعداء كانت حاصلة والدافع لذلك وهو الوثوق بوعد الله ووعد رسوله ما كان معتبرا عندهم، لأنهم كانوا مكذبين بالرسول في قلوبهم، فلا جرم عظم الخوف في قلوبهم.

وفي تفسيره لظن الجاهلية يقول: في هذا الظن احتمالان: أحدهما -وهو الأظهر- هو أن ذلك الظن أنهم كانوا يقولون في أنفسهم لو كان محمد مُحقا في دعواه لما سُلِّط الكفار عليه وهذا ظن فاسد، أما علىٰ قول أهل السنة والجماعة، فلأنه سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحد عليه، فإن النبوة خلعة من الله سبحانه يشرف عبده بها، وليس يجب في العقل أن المولىٰ إذا شرف عبده بخلعة أن يشرفه بخلعة أخرىٰ، بل له الأمر والنهي كيف شاء بحكم الإلهية. وأما علىٰ قول من يعتبر المصالح في أفعال الله وأحكامه، فلا يبعد أن يكون لله تعالىٰ في التخلية بين الكافر والمسلم، بحيث يقهر الكافر المسلم، حكم خفية وألطاف مرعية، فإن الدنيا دار الامتحان والابتلاء، ووجوه المصالح مستورة عن العقول، فربما كانت المصلحة في التخلية بين الكافر والمؤمن حتىٰ

يقهر الكافر المؤمن، وربما كانت المصلحة في تسليط الفقر والزمانة علىٰ المؤمنين.

قال القفال: لو كان كون المؤمن مُحقا يوجب زوال هذه المعاني لوجب أن يضطر الناس إلىٰ معرفة المحق بالجبر، وذلك ينافي التكليف واستحقاق الثواب والعقاب، بل الإنسان إنما يعرف كونه محقا بما معه من الدلائل والبينات، فأما القهر فقد يكون من المُبطِل للمُحِقّ، ومن المحق للمبطل، وهذه جملة كافية في بيان أنه لا يجوز الاستدلال بالدولة والشوكة ووفور القوة علىٰ أن صاحبها علىٰ الحق.

. . . ومن الصفات التي ذكرها الله تعالىٰ لهؤلاء المنافقين قوله تعالىٰ: يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله. واعلم أن قوله هل لنا من الأمر من شيء حكاية للشبهة التي تمسك أهل النفاق بها، الوجه الثاني في التأويل؛ أن من عادة العرب أنه إذا كانت الدولة لعدوه قالوا: عليه الأمر -فقوله: هل لنا من الأمر من شيء أي هل لنا من الشيء الذي كان يعدنا به محمد، وهو النصرة والقوة شيء؟! وهذا استفهام علىٰ سبيل الإنكار .. وكان غرضهم منه الاستدلال بذلك علىٰ أن محمدا ﷺ كان كاذبا في ادعاء النصرة والعصمة من الله تعالىٰ لأمته، وهذا استفهام علىٰ سبيل الإنكار.

والثالث: أن يكون التقدير: أنطمع أن تكون لنا الغلبة علىٰ هؤلاء، والغرض منه تصبير المسلمين في التشديد في الجهاد

والحرب مع الكفار، ثم إن الله سبحانه أجاب عن هذه الشبهة بقوله: قل إن الأمر كله لله.

وقد وضح الرازي أن الله قد أجاب عن شبهاتهم أنهم لو كان لهم من الأمر من شيء ما قُتلوا -من ثلاثة أوجه، قائلا: اعلم أنه تعالىٰ أجاب عن هذه الشبهة من ثلاثة أوجه.

الوجه الأول من الجواب؛ قوله: قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلىٰ مضاجعهم -والمعنىٰ أن الحذر لا يدفع القدر، والتدبير لا يقاوم التقدير، فالذين قدر الله عليهم القتل لا بد وأن يقتلوا علىٰ جميع التقديرات . . . نقول للمفسرين: فيه قولان . .

الأول: لو جلستم في بيوتكم لخرج منكم من كتب الله عليهم القتل إلىٰ مضاجعهم ومصارعهم حتىٰ يوجد ما علم الله أنه يوجد. والثاني: كأنه قيل للمنافقين لو جلستم في بيوتكم وتخلفتم عن الجهاد لخرج المؤمنون الذين كتب عليهم قتال الكفار إلىٰ مضاجعهم، ولم يتخلفوا عن هذه الطاعة بسبب تخلفكم.

الوجه الثاني في الجواب عن تلك الشبهة: قوله: وليبتلي الله ما في صدوركم وذلك لأن القوم زعموا أن الخروج إلىٰ تلك المقاتلة كان مفسدة، ولو كان الأمر إليهم، لما خرجوا إليها، فقال تعالىٰ: بل هذه المقاتلة مشتملة علىٰ نوعين من المصلحة: أن يتميز الموافق من المنافق، وفي المثل المشهور: لا تكرهوا الفتن فإنها حصاد

المنافقين، ومعنىٰ الابتلاء في حق الله تعالىٰ قد مر تفسيره مرارا كثيرة . . .

والوجه الثالث في الجواب: قوله: وليمحص ما في قلوبكم وفيه وجهان: أحدهما: أن هذه الواقعة تمحص قلوبكم عن الوساوس والشبهات. والثاني: أنها تصير كفارة لذنوبكم فتمحصكم عن تبعات المعاصي والسيئات، وذكر في الابتلاء الصدور، وفي التمحيص القلوب، وفيه بحث ثم قال: والله عليم بذات الصدور.

واعلم أن ذات الصدور هي الأشياء الموجودة في الصدور، وهي الأسرار والضمائر، وهي ذات الصدور، لأنها حالة فيها مصاحبة لها، وصاحب الشيء ذوه وصاحبته ذاته، وإنما ذكر ذلك ليدل به علىٰ أن ابتلاءه لم يكن لأنه يخفىٰ عليه ما في الصدور، أو غير ذلك، لأنه عالم بجميع المعلومات وإنما ابتلاهم إما لمحض الإلهية، أو للاستصلاح).

❁ ❁ ❁

وقال رب العالمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٦-١٥٧]

يرىٰ الزمخشري وابن كثير أن النهي الوارد هنا كان عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد، ودلالة علىٰ أن هذا معتقدهم، قيلهم: لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم؛ فلا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره، ولا يزاد في عمر أحد ولا ينقص منه إلا بقضائه وقدره، فقد يحيي المسافر والغازي وقد يميت المقيم والقاعد! ولكون ذلك الاعتقاد الفاسد كذلك سببا للتقاعد عن الجهاد، ومم الخوف والذعر؟! لئن تم عليكم ما تخافونه من الهلاك بالموت والقتل في سبيل الله، فإن ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت في سبيل الله خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا! والنهي هنا، كما يرىٰ الرازي، مطلق في رفض استخدام المسلمين لهذا القول الشنيع الذي كان المنافقون يعيِّرون به المؤمنين في الجهاد. ثم يمضي في تفسير استخدام هذه الحجة بأن المنافقين كانوا يظنون أن الخارج منهم لسفر بعيد والخارج إلىٰ الغزو إذا نالهم موت أو قتل فذلك إنما نالهم بسبب السفر والغزو! وجعلوا ذلك سببا لتنفير الناس عن الجهاد، وذلك لأن في الطباع محبة الحياة وكراهية الموت والقتل. ويمضي الإمام مفسرا مسألة الطبع هذه قائلا أنه إذا قيل للمرء: إن تحرزت من السفر والجهاد فأنت سليم طيب العيش، وإن تقحمت أحدهما وصلت إلىٰ الموت أو القتل، فالغالب أنه ينفر طبعه عن ذلك ويرغب في ملازمة البيت، وكان ذلك من مكايد المنافقين في تنفير المؤمنين عن الجهاد!

ثم ينتقل الإمام إلىٰ تفسير سبب حدوث الحسرة في القلوب من عدة وجوه عجيبة غزيرة الفوائد!

الوجه الأول: أن أقارب ذلك المقتول إذا سمعوا هذا الكلام ازدادت الحسرة في قلوبهم، لأن أحدهم يعتقد أنه لو بالغ في منعه عن ذلك السفر وعن ذلك الغزو لبقي، فذلك الشخص إنما مات أو قتل بسبب أن هذا الإنسان قصَّر في منعه، فيعتقد السامع لهذا الكلام أنه هو الذي تسبب إلىٰ موت ذلك الشخص العزيز عليه أو قتله، ومتىٰ اعتقد في نفسه ذلك فلا شك أنه تزداد حسرته وتلهفه!

أما المسلم المعتقد أن الحياة والموت لا يكون إلا بتقدير الله وقضائه، لم يحصل ألبتة في قلبه شيء من هذا النوع من الحسرة، فثبت أن تلك الشبهة التي ذكرها المنافقون لا تفيدهم إلا زيادة الحسرة!

الوجه الثاني: أن المنافقين إذا ألقوا هذه الشبهة إلىٰ إخوانهم تثبطوا عن الغزو والجهاد وتخلفوا عنه، فإذا اشتغل المسلمون بالجهاد والغزو، ووصلوا بسببه إلىٰ الغنائم العظيمة والاستيلاء علىٰ الأعداء والفوز بالأماني، بقي ذلك المتخلف عند ذلك في الخيبة والحسرة.

الوجه الثالث: أن هذه الحسرة إنما تحصل يوم القيامة في قلوب المنافقين إذا رأوا تخصيص الله المجاهدين بمزيد الكرامات وإعلاء الدرجات، وتخصيص هؤلاء المنافقين بمزيد الخزي واللعن والعقاب.

الوجه الرابع: أن المنافقين إذا أوردوا هذه الشبهة علىٰ ضعفة المسلمين ووجدوا منهم قبولا لها -فرحوا بذلك، من حيث إنه راج كيدهم ومكرهم علىٰ أولئك الضعفة، فالله تعالىٰ يقول: إنه سيصير ذلك حسرة في قلوبهم إذا علموا أنهم كانوا علىٰ الباطل في تقرير هذه الشبهة.

الوجه الخامس: أن جدهم واجتهادهم في تكثير الشبهات وإلقاء الضلالات يعمي قلوبهم فيقعون عند ذلك في الحيرة والخيبة وضيق الصدر، وهو المراد بالحسرة.

الوجه السادس: أنهم متىٰ ألقوا هذه الشبهة علىٰ أقوياء المسلمين لم يلتفتوا إليهم فيضيع سعيهم ويبطل كيدهم فتحصل الحسرة في قلوبهم.

بعد هذه الأوجه ينتقل إلىٰ تفسير الجواب الإلهي الثاني عن شبهة المنافقين، وهي الآية (لئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما تجمعون). فيقول: هذا الموت لا بد واقع ولا محيص للإنسان من أن يقتل أو يموت، فإذا وقع هذا الموت أو القتل في سبيل الله وفي طلب رضوانه، فهو خير من أن يجعل ذلك في طلب الدنيا ولذاتها التي لا ينتفع الإنسان بها بعد الموت ألبتة. وهذا جواب في غاية الحسن والقوة، وذلك لأن الإنسان إذا توجه إلىٰ الجهاد أعرض قلبه عن الدنيا وأقبل علىٰ الآخرة، فإذا مات فكأنه تخلص عن العدو ووصل إلىٰ المحبوب، وإذا جلس في بيته

خائفا من الموت حريصا علىٰ جمع الدنيا، فإذا مات فكأنه حجب عن المعشوق وألقي في دار الغربة، ولا شك في كمال سعادة الأول، وكمال شقاوة الثاني).

❁ ❁ ❁

وقال رب العالمين:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]

بيَّن الرازي أنها حجة جديدة ها هنا؛ فإن الذين حكىٰ الله عنهم أنهم قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم؛ وصفهم الله تعالىٰ بأنهم كما قعدوا واحتجوا لقعودهم -فكذلك ثبطوا غيرهم واحتجوا لذلك!

فحكىٰ الله تعالىٰ عنهم أنهم قالوا لإخوانهم: إن الخارجين لو أطاعونا ما قتلوا، فخوفوا من مراده موافقة الرسول ﷺ في محاربة الكفار بالقتل لما عرفوا ما جرىٰ يوم أحد من الكفار علىٰ المسلمين من القتل، لأن المعلوم من الطباع محبة الحياة فكان وقوع هذه الشبهة في القلوب يجري مجرىٰ ما يورده الشيطان من الوسواس. وفي نقل الإمام لبعض التفاسير نجد كلاما يعضد ما ذكرناه قبلا، أن التخذيل حقا يبدأ من بعد أحد، فيقول عن الحجة الأخيرة أنها كلام متأخر عن الجهاد، قاله لمن خرج إلىٰ الجهاد ولمن هو قوي النية في ذلك - ليجعله شُبهة فيما بعده صارفا لهم عن الجهاد!

فالمعوِّق المُخذِّل هنا يقوم بصنع شبهة مستقبلية خبيثة . . حتىٰ إذا هُزم المُجاهِد لسبب ما -قال لنفسه: لقد كان المعوِّق حكيما في حديثه ونصيحته؛ فيكون تابعا له في ضلاله مستقبلا!

الفصل الثاني

بدر الموعد

سنة عصيبة مرت بعد نكبة أُحد!

كانت الآثار المعنوية ثقيلة في كافة الاتجاهات، فتجرأ الأعراب واليهود والمنافقين، وقضىٰ النبي زمنا في محو آثارها النفسية وما تلاها من خيانتي الرجيع وبئر معونة القاسيتين. انتصر النبي علىٰ يهود بني النضير وأجلاهم عن المدينة لمحاولة اغتياله التي كانوا يدبرونها، وجاء موعد المعركة التي تواعد عليها أبو سفيان والنبي في ختام أُحُد: معركة بدر الصفراء انتقاما لبدر الأولىٰ.

❋ ❋ ❋

عندما جاء توقيت هذه المعركة أصاب أبا سفيان التخاذل عن الخروج لملاقاة النبي بسبب جدب مكة في ذلك الوقت، فاستخدم مسالك الإرجاف لإشاعة الذعر في جيش النبي ليثبطه هو الآخر عن الخروج، فكان كل من ورد عليه مكة يريد المدينة أخبره: أنَّا نريد أن نغزو محمدا في جمع كثيف! خدعة ماكرة وألاعيب نفسية لا تنتهي!

فيقدم القادم علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ ليجدهم يتجهزون

فيقول: تركت أبا سفيان قد جمع الجموع، وسار في العرب ليسير إليكم لموعدكم! فيكره ذلك المسلمون ويهيبهم![1].

بل إن سيد قريش قد استأجر نُعيم بن مسعود -احتفظوا بالاسم، فسيكون له دور ضخم في غزوة الأحزاب بعدما يشهر إسلامه- لكي يُخذِّل صحابة النبي ويُرجِف قلوبهم، هذا ونعيم في البداية أرجف بأبي سفيان نفسه دون تعمد عندما نقل له حجم جموع النبي التي يجهزها للقائه! فكأنما أراد أبوسفيان نقل هذا الإرجاف إلىٰ الجهة الأخرىٰ بعدما علم هذه المقدرة الفذة لنعيم! فوعده بأن يعطيه عطاء كثيرا إن هو خذَّل الصحابة؛ فقال: يا أبا يزيد، تضمن لي عشرين فريضة علىٰ أن أقدم المدينة فأخذل أصحاب محمد؟ قال: نعم. قال: فإني خارج!

هكذا كان دور نعيم بن مسعود أن يكون (جاسوسا مُخذِّلا في زي الناصح الحكيم) الذي ينقل الحقيقة الواقعة من معسكر الكافرين! أعد قراءة التوصيف مرة أخرىٰ وتأمل!

وقد حدث، ويحدث!

ذهب نعيم إلىٰ المدينة يقول للصحابة بكلمات تقاطرت كأسنة الرماح: تركت أبا سفيان قد جمع الجموع وأجلب معه العرب! فهو جاء فيما لا قبل لكم به؛ فأقيموا ولا تخرجوا فإنهم قد أتوكم في

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٣٨٥: ٣٨٦.

داركم وقراركم، فلن يفلت منكم إلا الشريد! وقُتلت سراتكم وأصاب محمدا في نفسه ما أصابه من الجراح! فتريدون أن تخرجوا إليهم فتلقوهم في موضع من الأرض؟! بئس الرأي رأيتم لأنفسكم -وهو موسم يجتمع فيه الناس- والله ما أرىٰ أن يفلت منكم أحد!

ولم يتوقف المطر الحاد، فظل يطوف بهذا القول في أصحاب رسول الله ﷺ حتىٰ أفزعهم وكره إليهم الخروج، وحتىٰ نطقوا بتصديق قول نعيم، أو من نطق منهم!

هكذا كان التخذيل وإرجاف القلوب بمسلك التهويل من حجم العدو واتهام رأي النبي بالخروج وملاقاة أبي سفيان بأنه رأيُ مخاطرة. انتبه أنه لا يشخصن القضية لأنه يعلم منزلة النبي من الصحابة، فلا يتهمه مباشرة بل يتهم رأيه فقط! جاعلا السبيل الوحيد لإيقاف هذه المغامرة بالأرواح: القعود. عدم الخروج والتضحية بالنفس هباء أمام جيش أبي سفيان الضخم! كل هذا كان يلاقي نفوسا مكسورة معنويا أمام قريش لما جرىٰ من نكبة في آخر معركة، فلك أن تتصور حجم الإرهاب النفسي الذي تثيره كلماته!

كيف قضىٰ النبي علىٰ هذا التخذيل والإرجاف؟ مرة أخرىٰ يبهرنا الشجاع الأمجد بعبقريته: لقد جهز نفسه واستعد للخروج وقال بأنه سيخرج وإن لم يخرج معه أحد!

هباء! لقد صار كل صنيع نعيم من تخذيل وإرجاف في لحظة واحدة: مجرد هباء!

فخرج جيش النبي فورا وراء نبيه دون إبطاء إلىٰ بدر انتظارا لأبي سفيان وجيشه العرمرم الذي توعدهم المرجفون به. ثم جاء خبر هذا الخروج المتحدي المتحفز والانتظار إلىٰ أبي سفيان، فتخاذل جيشه مرتجفا ولم يأت النبي في موعده فانقلب العامل النفسي لصالح المسلمين بصورة غير متوقعة إلىٰ جانبهم: لقد خشي المشركون لقاءنا!

يقول الرازي تعليقا: هذه الواقعة تدل دلالة ظاهرة علىٰ أن الكل بقضاء الله وقدره، وذلك لأن المسلمين كانوا قد انهزموا من المشركين يوم أحد، والعادة جارية بأنه إذا انهزم أحد الخصمين عن الآخر فإنه يحصل في قلب الغالب قوة وشدة استيلاء، وفي قلب المغلوب انكسار وضعف، ثم إنه سبحانه قلب القضية هاهنا! فأودع قلوب الغالبين وهم المشركون الخوف والرعب، وأودع قلوب المغلوبين القوة والحمية والصلابة!

❁ ❁ ❁

إن مسلك التخذيل المذكور بالإرهاب من ملاقاة جموع المشركين الكبيرة، إن جردنا حجته وجدناه أحد أوسع المسالك المستخدمة في كل الأزمان بكثرة العدو والتخذيل عن ملاقاته بحجة عدم حكمة الخروج لجهادهم. وقد قُضي علىٰ هذا المسلك بشجاعة القيادة وعدم مناقشتها لتلك الأخبار، إنما الحسم بالخروج سريعا

لقطع سريان الخوف بين الصحابة. لاحظ أن هذه هي المرة الثانية التي يستخدم فيها النبي تكتيك التحريك السريع للقوات لقطع الكلام بعد أن تتقدمها القيادة لضرب المثل في الشجاعة كي يحذو الجميع حذوه.

ونلاحظ كذلك كيف أن رؤوس المُخذّلين قد يكونون هم أعوان العدو وجواسيسه بيننا، وإن تبعهم نفرٌ من الصادقين السُّذَّج الذين قد يقتنعون بحكمة هؤلاء وصواب نصيحتهم التخذيلية العقلانية المنطقية ظاهرا، وصحة إرجافهم بمسالكه المختلفة! فقد سرىٰ تخذيل نُعيم بن مسعود بين الصحابة واعتقدوه صادقا معهم وبالتأكيد انتقلت الشائعات والتخذيلات بينهم، لأنه كان صاحب مصداقية بينهم!

لذا وجب فضح رؤوس التخذيل، والتقصي عن علاقاتهم بالعدو أو الخصم، فمن كان له علاقة حسنة بهم لدرجة الدعم - فيجب اتهامه إن كان مُصرا علىٰ تخذيله للمسلمين وإرجافه بينهم طالبا منهم القعود معوقا إياهم عن الجهاد ونصرة دين الله ومدافعة الشر عن بلاد المسلمين، لعلهم إن كانوا أبرياء من التجسس أن يتوقفوا عن صنيع المنافقين في عهد النبي فيرتفع أذاهم وشرهم عن المسلمين!

وعلىٰ من يتصدىٰ لهم أن يتعرَّف أولا علىٰ السبب الرئيسي لما يفعلونه -فبعضهم يعتبر طاغيته وليا للأمر تجري عليه كافة أحكام المسلمين، ومثل هذا قد ينتفض البعض ويهاجمه علىٰ ظاهر تخذيله متهما إياه حتىٰ بالعمالة المباشرة للنظام العالمي، دون فهم السبب

الرئيسي لما يفعله: عدم اعتبار حاكمه ممن يجب دفعهم أصلا، لا لعمالة وظيفية ولا لجورٍ عنده. ولا يدخل في هؤلاء الفرقة الجامية المجرمة فهؤلاء خوارج علىٰ التحقيق، ونفس الخوارج والطعن في المسلمين يفوح من رائحة أفواههم النتنة.

فمخطئ من يسكت عنهم ولا يفضح دورهم الذي يصنعونه عن غفلة وسذاجة أو سوء تصور وتقدير. ومخطئ كذلك من يتهمهم بلا تبيُّن أو دليل بأنهم عملاء وجواسيس بما لأمثالهم من أحكام شرعية تصل لدرجة الحُكم بالرِّدة للموالاة، وقد عاينَّا هذه المخازي وما تؤدي إليه من مهازل: مخازي التخاذل عن مواجهتهم ومخازي الحكم بالردة ووجوب القتل!

❊ ❊ ❊

وقد قال رب العالمين في تنزيل هذه الغزوة -علىٰ خلاف هل نزلت فيها أم في حمراء الأسد: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقد رُجِّح أن هذه في بدر الموعد لتطابق المقول مع قيل نعيم بن مسعود، وللزمخشري التفاتة رائقة في هذه الآية، فهو يقول: فإن قلت كيف قيل الناس إن كان نعيم هو المثبط وحده؟ قلت: قيل ذلك لأنه من جنس الناس، كما يقال: فلان يركب الخيل ويلبس البرود، وماله

إلا فرس واحد وبرد فرد. أو لأنه حين قال ذلك لم يخل من ناس من أهل المدينة يضامونه، ويصلون جناح كلامه، ويثبطون مثل تثبيطه.

فدلَّ الزمخشري بهذا الفهم علىٰ خطورة المُعوِّق -لأن كلامه لا يتناقله وحده بل يتناقله الجمع من الناس الذين يثقون به فتصبح الفتنة أشد.

وقال تعليقا علىٰ كيفية زيادة التخذيل من إيمان المؤمنين: فإن قلت كيف زادهم نعيم أو مقوله إيمانا؟ قلت لما لم يسمعوا قوله وأخلصوا عنده النية والعزم علىٰ الجهاد وأظهروا حمية الإسلام، كان ذلك أثبت ليقينهم وأقوىٰ لاعتقادهم، كما يزداد الإيقان بتناصر الحجج ولأن خروجهم علىٰ أثر تثبيطه إلىٰ وجهة العدو طاعة عظيمة، والطاعات من جملة الإيمان لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل.

❁ ❁ ❁

وقد ذكر رب العالمين ذا المعوِّق الذي أرجف تذكيرا بجموع الناس قائلا: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]

فقال الإمام القرطبي قال ابن عباس وغيره: المعنىٰ يخوفكم أولياءه، أي بأوليائه، أو من أوليائه . . أي يخوف المؤمن بالكافر. وقال الحسن والسدي: المعنىٰ يخوف أولياءه المنافقين، ليقعدوا عن

قتال المشركين. فأما أولياء الله فإنهم لا يخافونه إذا خوفهم.

وحاصل نقل القرطبي الإمام أن هناك احتمالان في تفسير هذه الآية فإما أن الشيطان يعمل في الخلفية سرا لتخويف ضعاف القلوب والإيمان من المسلمين بالتناغم مع المُعوِّقين المُرجفين المُخذِّلين الذين يستخدمهم جهرا - وإما أن المقصود كون الشيطان يُخوِّف المُعوِّقين فينتقل إرجافهم إلىٰ المؤمنين! فهم بين فاعل واع وفاعل مفعول به بلا وعي!

ويميل الرازي للرأي الثاني (الفاعل المفعول به) لكن بتعديل علىٰ الرؤية التي بالأعلىٰ، فيقول أن الشيطان يخوف أولياءه الذين يطيعونه ويؤثرون أمره، فأما أولياء الله، فإنهم لا يخافونه إذا خوفهم ولا ينقادون لأمره ومراده منهم ... وأما الأولياء فهم المشركون والكفار. وقوله فلا تخافوهم الكناية في القولين الأولين عائدة إلىٰ الأولياء. وفي القول الثالث عائدة إلىٰ الناس في قوله: إن الناس قد جمعوا لكم. فلا تخافوهم فتقعدوا عن القتال وتجنبوا وخافون فجاهدوا مع رسولي وسارعوا إلىٰ ما يأمركم به إن كنتم مؤمنين يعني أن الإيمان يقتضي أن تؤثروا خوف الله علىٰ خوف الناس.

وبالعموم فهذه الآية حاسمة في توضيح انتماء مُنافقي المُعوِّقين العالمين منهم وغير العالمين، العملاء منهم وغير العملاء من المرجفين المُخذِّلين والمثبطين، إلىٰ معسكر الشيطان وولايته، في

مقابل معسكر المؤمنين أولياء الله. وإن المخذول بحق هو من ينضم غافلا جاهلا إلىٰ معسكر الشيطان وهو يظن نفسه يحسن صنيعا بالإرجاف والتخذيل عن الجهاد، فالعالم بما يصنعه منافق المخذِّلين والجاهل بوليه الذي يوسوس إليه فهو مخذول المخذِّلين!

❀ ❀ ❀

الفصل الثالث

الأحزاب

نحن الذين بايعوا محمدا

على الجهاد ما بقينا أبدا

هدوء الخبراء!

ترقُّب من وعوا حديث النبي: لا تمنوا لقاء العدو .. فإذا لقيتموه -فاثبتوا.

الهدوء والصبر.

الثبات في مواجهة أمواج الكفر القادم. ولا شيء إلا انتظار تحقق وعد الله.

سيُهزم الهول القادم لحصار المدينة! سيُهزم الجمع ويولون الدُبُر!

❀ ❀ ❀

العام الثاني بعد نكبة أُحُد - الخامس من الهجرة.

بعدما حقق النبي انتصارا علىٰ يهود بني النضير لخيانتهم ومحاولتهم اغتياله وأجلاهم إلىٰ خيبر، تلك المنطقة المُحصَّنة القوية

التي صارت مجمعا يهوديا يشبه إسرائيل صُغرىٰ بداخل الحجاز. بدأت الآلة اليهودية التآمرية الانتقامية تعمل للرد بقسوة. ذهب قيادات اليهود إلىٰ قريش يشجعونهم للخروج إلىٰ النبي واستئصال دينه في عقر داره! لا ليس كأحد هذه المرة؛ إنما أكبر من هذا بكثير.

وقد جرت الأحداث مسرعة واسطاع وفد اليهود أن يجمع عدة قبائل وقيادات عربية من نجد بالمشرق ومن قريش بالجنوب. اكتملت خطة عسكرية متينة. وبدأ التحرك.

الهدف: استئصال الإسلام بالقضاء علىٰ النبي والمسلمين. أحد؟ لعب أطفال جوار ما هو آتٍ!

❀ ❀ ❀

فور وصول الأنباء بقرار الغزو أخبر النبي المسلمين واستشارهم. تذكَّر أن آخر معركة بين المسلمين والكافرين تشبه تلك كانت أُحُد، بكل ما تحمله من ذكريات وشجون!

واستقر الرأي علىٰ حفر خندق في الموضع الممكن دخول قريش منه إلىٰ المدينة. فبدأوا في العمل فورا.

شارك النبي مع الصحابة في العمل والحفر والرباط انتظارا لجيش الكافرين، وبدأ الإنشاد الجميل المُتبادل بين النبي والصحابة يرفع المعنويات، ورأىٰ المسلمون إنما بطش رسول الله ﷺ معهم في العمل ليكون أجدَّ لهم وأقوىٰ لهم بإذن الله ﷻ، فجعل الرجل

يضحك من صاحبه إذا رأىٰ منه فترة، وقال النبي ﷺ لا يغضب اليوم أحد من شيء ارتجز به ما لم يقل قول كعب أو حسان فإنهما يجدان من ذلك قولا كثيرا ونهاهما أن يقولا شيئا يحفظان به أحدا![1].

هكذا كان النبي حريصا علىٰ إشاعة الروح العالية المرحة مقارنا ذلك بنهي جهازه الإعلامي أن يُغضِب أحدا أو يثير مشاعر سيئة تنشر أدنىٰ مشاعر الغضب أو الضيق أو الإحباط.

وبدأت معجزات تجري علىٰ أيدي النبي أثناء الحفر مبشرة لهم، كمعجزة إطعام الجيش كله بنذر يسير لم ينته من الطعام! وفلق الحجر الضخم الذي استعصىٰ علىٰ الجميع تكسيره، والذي أثناء فلقه ظهرت ثلاثة بروق أخبر النبي المسلمين أنها بشرىٰ من الله بفتح فارس والروم والحبشة فاستبشروا خيرا.

تلك الروح اللطيفة المستشرية بين الجميع، والتي لم تسمح بأن نقرأ عن أي إرجاف حدث في تلك المرحلة رغم تجميع الجموع ومسيرها نحو مدينة النبي من اتجاهين، لابد أن نرد تفسيرها إلىٰ قلة تواجد اليهود في المدينة وتآكل نفوذهم المعنوي بين الصحابة، وإلىٰ ما جرىٰ خلال العامين اللذين أعقبا أحد وخاصة بدر الموعد.

ثم فجأة!

ظهرت أمام الصحابة جموع الكافرين!

بحرٌ زاخر!

---

(١) دلائل النبوة ٣/ ٣٩٩.

أي بدر وأي أحد؟! هذا مشهد مخيف جديد!

في تلك اللحظة من ذاك اليوم الأرونان العصيب، بدأ أول إرجاف، لحظة التقاء الجموع، حين صُدم الكثيرون ممن هم في جيش المسلمين: هؤلاء ليسوا ثلاثة آلاف كما كانوا في أُحُد -هؤلاء أكثر من عشرة آلاف جندي عربي، والبعض يذكر أنهم كانوا خمسة عشر ألفا بالأحابيش[1]!

هذا أكبر جمع لأحزاب القبائل ضد الإسلام وقد اتفقت مع بعضها علىٰ هدف واحد: إبادة للإسلام وأهله!

قال المنافقون حين رأوا الجمع المخيف: يعدنا كنوز قيصر وكسرىٰ وأحدنا لا يستطيع التغوُّط؟!

سؤال منطقي! ولابد أنه قد فعل فعله في القلوب الضعيفة! لكن القلوب القوية للمؤمنين جعلت تقول: هذا ما وعدنا الله ورسوله! لقد كانت متيقنة بالنصر رغم هذا المشهد المخيف.

أكثر من عشرة ألاف كافر أمام ثلاثة آلاف مسلم: حوالي أربع أضعاف تعداد المسلمين، وبحقد سنوات متطاولة!

هل أزيدك من الشعر بيتا كي تدرك حجم الذعر: لم يعرف العرب في معاركهم قبل هذه تلك الجموع العسكرية الهائلة بين بعضهم البعض ولا بينهم وبين الأمم الأخرىٰ! حتىٰ يوم الكلاب

---

(١) تفسير البحر المحيط. ٨/ ٤٥٧.

الثاني الذي كان بين مذحج وقضاعة وقيادة بني الحارث النجرانيين ضد بني تميم، والذي وُصف جيش الجنوبيين بأنه لا يعلم في الجاهلية جيش أكثر منه ومن جيشي جبلة وذي قار: كان تعداده ثمانية آلاف جندي. أما معركة ذي قار الملحمية التي وقعت بين الفرس والعرب والتي كانت أعظم صدام جاهلي بينهما، كان تعداد الجيش الفارسي المخيف الذي أثار ذعر العرب حتىٰ تعاضدوا معا وراسلوا العرب المشاركين للفرس كي يخففوا عنهم ويخذلوا قيادتهم، هذا الجيش الفارسي المرعب الملحمي العظيم -كان تعداده من سبعة إلىٰ ثمانية آلاف محارب![١].

لم يكن العرب يعرفون جيشا بهذا التعداد الضخم في معاركهم التي كانت بين عشرات أو مئات في أغلبها اللهم إلا ملاحم كيوم خزار وذي قار وجبلة والكلاب الثاني، ومع ذلك لم تصل الآلاف لذاك العدد من قبل. ولم تكن معارك العرب مدنية الطبع تستخدم أساليب الحصار بل كان الغالب عليها الغزوة الخاطفة والضربات السريعة[٢] أو اللقاء في الصحاري بأسلوب قبلي بدائي ليس فيه نية إبادة، كما حدث في ختام يوم بعاث عندما دارت المعارك والصدامات علىٰ الخزرج فتوقف الأوس عن القتال كيلا ينهون وجود

(١) برو، تاريخ العرب القديم: ٢٢٧.

(٢) برو، تاريخ العرب القديم: ٢٠٤.

عدوهم العربي[1]. لذا كانت هذه المعركة فريدة علىٰ العقلية العربية من عدة أوجه، ولذا عزز الله المسلمين بسلمان الفارسي وفكرة الخندق، فالصحب حول النبي عرب لا يملكون الإرث الثقافي والعسكري الذي يملكه سلمان ابن المدن المقتحمة والمدافعة وابن والحضارات المتصارعة. وكانت هذه الفكرة مفاجئة للجميع وأولهم أبي سفيان، وهذا يفسر قولته الشهيرة عندما تفحص الخندق بأن هذا لا يمكن أن يبتكره عربي. لاحظ أن اسم خندق ذاته معرَّب عن الفارسية وأصله كنده أي محفور[2]!

هذا المشهد: مشهد جموع الأحزاب. كان أول مشهد بهذه الهيئة المرعبة في غرب الجزيرة العربية. وهذا الجيش، كان أكبر جيش عربي متحالف حتىٰ زمانه. تصور كل هذه العوامل لتتفهم أي رجفة أصابت القلوب عند رؤية هذا الهول!

❀ ❀ ❀

اضطر المشركون لنصب معسكراتهم أمام الخندق، واستخدام أسلوب جديد للمعركة سيتم اعتماده حتىٰ النهاية: الرمي بالنبال والبحث المستمر عن الثغرات للتسلل مع ضرب حصار شديد وضغط نفسي مستمر علىٰ المسلمين. هذا من الجهة العسكرية، أما من الجهة

---

(١) برو، تاريخ العرب القديم: ٢٠٩.

(٢) السيوطي، المزهر: ١/٢٢٨.

المؤامراتية فقد بدأ العمل يشتد منذ تلك اللحظة.

❁ ❁ ❁

أول العمليات المؤامراتية في الساحة جاءت بالضربة الجديدة التي جهزها اليهود للرسول من خلفه: استطاع حيي بن أخطب إقناع بني قريظة، آخر جماعة يهودية تعيش في المدينة، أن تنبذ عهد النبي وتخونه وسط هذا الظرف العصيب!

أي إرجاف يمكن لخبر كهذا أن يصنعه بالمسلمين وهم أمام خضم الكفر الزاخر من فوقهم؟

لهذا قام النبي بمراعاة هذا الأمر عندما بعث سيدا الأنصار: سعد بن عبادة وسعد بن مُعاذ، كي يستوثقا من تلك الأنباء الخفية التي وصلته بخيانة اليهود من ورائه، واتفق معهما علىٰ ما يمنع الإرجاف؛ فقال: ائتوا هؤلاء القوم فانظروا، فإن كانوا علىٰ الوفاء فيما بيننا وبينهم -فأعلنوه.

وإن كانوا علىٰ ما بلغنا عنهم، فالحنوا لي عنهم لحنا أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد المسلمين[1].

وبالطبع جاء الخبر بالخيانة، فأخبراه بكلمة سر فهم منها حدوث الطامة!

---

(١) دلائل النبوة.٣/ ٤٢٩.

استحكم الحصار الخانق. أي أحد الآن! العدو من أسفل ومن أعلىٰ، من الأمام ومن الخلف. ثارات بدر وثارات اليهود وثارات بدو نجد. الكل له ثأر عند المسلمين؛ فلتكن هذه أول حرب إبادة عربية!

لكن الحصار بدأ يطول لانتظار اليهود اقتحام المتحالفين. وازدادت كثافة الرمي وعظم الخشية مما يمكن أن يفعله خونة بني قريظة ومعهم سبعمائة جندي، إن خرجوا في المدينة سيطروا عليها تماما وأرغموا المسلمين علىٰ الرجوع إليها وترك الرباط أمام العدو - وبالتالي يصبح من اليسير علىٰ العرب عبور الخندق والتنكيل بالمسلمين بصورة لم يكن يحلم بها أي منهم.

لهذا كله يمكنك فهم صعوبة الموقف العصيب الذي صعَّد من وتيرة عمل المنافقين تخذيلا وإرجافا في صفوف المسلمين في هذا التوقيت المُتأزِّم.

التخذيل الذي جعل فريقا منهم يستأذن النبي، يقولون: إن بيوتنا عورة! وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا. لم يعودوا يطيقون ذلك الضغط النفسي الهائل والترقُّب المريع.

❁ ❁ ❁

وكانت نهاية الحصار عجيبة!

أخرج من جعبتك اسم (نعيم بن مسعود) جاسوس أبي سفيان

في بدر الموعد الذي طلبت منك أن تحتفظ به!

قرر نعيم أن يعلن إسلامه في تلك الظروف الحرجة التي يمر بها المسلمون؛ فكان خير تعزيز من رب العالمين بأصلح الأشخاص للخدعة المركبة القادمة!

فقد أتىٰ النبي يعلن إسلامه، لكنه ارتأىٰ أن يبقي إسلامه سرا ليلعب نفس الدور السابق بيد أنه لصالح المسلمين هذه المرة فقال له: إنما أنت فينا رجل واحد. فخذِّل عنا ما استطعت. فإنما الحرب خدعة[1].

ومن الواضح أن نعيما كان شخصا مقبولا من الجميع! ومن تلك النقطة كان يتسلل! كما أن في هذه المقولة النبوية إشارة عظيمة: رب مخذِّل واحد أنفع من جيش عرمرم!

هكذا دبَّر نعيم مكيدة للإيقاع بين بني قريظة من جهة - وبين قريش وغطفان من جهة أخرىٰ. فتفكك التحالف وانتشر الذعر والقلق في الجبهة الأخطر: اليهودية الداخلية، حيث ساد القلق والارتياب من قدرة الأحزاب العربية علىٰ نجدتها إن هي تجرأت وضربت جيش النبي من الخلف، فتخاذلت عن صنع تلك الجريمة. ومن الجهة الأخرىٰ شعرت قريش وغطفان بأن حليفهم الداخلي جبان وخائن، وقد أبلغهم نعيم أن اليهود قد تحالفوا سرا مع النبي لكي يُخلي عنهم علىٰ أن يوقعوا برؤوس قريش وغطفان الذين يأمنون إليهم!

---

(١) دلائل النبوة. ٣/ ٤٤٦.

ونجح سعي نعيم بن مسعود في دسِّ الخُذلان وسط صفوف العدو. ثم بعث الله ريحا عاتية أتت علىٰ البقية الباقية من معنويات الأحزاب ورغبتهم في الاستمرار؛ فانهاروا تماما وتخاذلوا بصورة ختامية عن استمرار الحصار حتىٰ صدر الإرجاف من كبار قادتهم -فقفلوا عائدين إلىٰ مواطنهم.

لقد دارت هذه المعركة كلها تقريبا حول محور التخذيل والإرجاف في إطار الحرب النفسية من الجانبين لتعذر حدوث مواجهة عسكرية، لكن إيمان المسلمين وصبرهم كما أمرهم النبي جعلا نجدة الله تأتيهم وتصرف رؤوس الكفر عنهم. لذا فإن المحاجَّات هنا عديدة، والتخذيل فيها امتزج بالإرجاف، وانتقل إلىٰ ساحة المعركة:

فمنه قول المنافقين عندما رأوا جيوش الكفر وراء الخندق -وكان النبي قد نقل للمسلمين بشرىٰ من الله رآها أن فارس والروم ستفتحان- والقول بلفظ مُعتِّب بن قُشير:

- كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرىٰ وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن علىٰ نفسه أن يذهب إلىٰ الغائط![1] -يعني خوفا من الجيوش الرابضة علىٰ بعد أمتار منهم.

ومنه ما نقله الله ﷻ عنهم: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا

(١) سيرة بن هشام.٢/ ٢٢٢.

﴿مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ﴾ [الأحزاب: ١٣]

وقد قيل في التفسير أن معناها: لا مُقام لكم هنا لكثرة العدو - فانسحبوا.

لا مقام لكم علىٰ القتال -فارجعوا إلىٰ الاستئمان والاستجارة بهم.

وقيل أن معناها: لا مقام لكم علىٰ دين محمد -فارجعوا للشرك(١).

ومنه كذلك نقله سبحانه قولهم: ﴿۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨]

قال الإمام القُرطبي: والقائلين لإخوانهم هلم -فيهم ثلاثة أقوال؛ أحدها: أنهم المنافقون، قالوا للمسلمين: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، وهو هالك ومن معه، فهلم إلينا.

الثاني: أنهم اليهود من بني قريظة، قالوا لإخوانهم من المنافقين: هلم إلينا، أي تعالوا إلينا وفارقوا محُمدا فإنه هالك، وإن أبا سفيان إن ظفر لم يبق منكم أحدا.

والثالث: ذكره الماوردي والثعلبي أيضا. ولفظه: قال ابن زيد هذا يوم الأحزاب، انطلق رجل من عند النبي ﷺ فوجد أخاه بين يديه

---

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ٢٢٧، البحر المحيط في التفسير ٨/ ٤٥٦، مجموع الفتاوىٰ ٢٨/ ٤٥٠.

رغيف وشواء ونبيذ، فقال له: أنت في هذا ونحن بين الرماح والسيوف؟ فقال: هلم إلىٰ هذا فقد تبع لك ولأصحابك، والذي تحلف به لا يستقل بها محمد أبدا. فقال: كذبت.

ومنه ما أفاد المسلمين وهو طلب النبي من نعيم بن مسعود التخذيل في جيوش الكافرين. واستخدام الحيلة للإيقاع بينهم وبالتالي التخاذل عن نصرة بعضهم البعض ضد النبي.

ومنه قول الكافرين عندما رأوا الريح الأخيرة أن محمدا ساحر؛ وبالتالي رحلوا عن موضعهم آيسين.

❀ ❀ ❀

أما بعد تجريد المحاجات والتخذيلات فستجد منها حجة (وعد الغرور) وهي التي يستخدمها مُعتِّب ساخرا متعقلنا في ذات اللحظة:

فإن كنا نخاف علىٰ أنفسنا من أقل حركة لإحاطة الكافرين بنا من كل جانب ونحن قِلّة ضعيفة تواجه خطر الإبادة في أي لحظة أمام عدو قاهر لنا رغم أنه نكرة في الأرض -فكيف يبشرنا أحد بالأمالي الواسعة في بقاء هذا الدين وهزيمة أرباب الكفر علىٰ وجه الأرض بذلك اليقين؟

إن جرَّدنا تساؤله فسنجده يُقال اليوم بعدة صيغ، كلها تصب في نفس الخانة:

أي انتصار ينتظره هؤلاء، بينما هم في قلة وضعف وأمتهم منكوبة ومقموعة من عمالقة الكفر وطواغيت الأرض أجمعين؟! ألا تبدو ساذجة تلك الأحلام بإفناء إسرائيل وفتح الأقصىٰ واستعادة الخلافة الراشدة وهيمنة أمتهم علىٰ أمم الكفر -كل هذا وعمومهم لا يأمن أن يُخبِر اسمه الحقيقي في العلن أو أن يجعل الناس يرون وجهه؟ لا يأمن أحدهم علىٰ نفسه الموت من سماءٍ ومن أرض، وقد استبيحت ملته واهدر دمه من أعداء الإسلام -ثم يتحدث عن أمة الإسلام القادمة وفتح الروم وكسر الصليب وإنهاء دولة اليهود؟!

كل تلك الأسئلة تبدو مجتمعة في مُحاجَّة عقلانية مُخذِّلة بالتأكيد عن كل مقاومة ومُرجِفة لأشد القلوب بأسا -لكنها تتجاهل العامل الأسمىٰ في حركة التاريخ: مشيئة مُحرِّك هذا التاريخ وصانع الكون ومكره بالكافرين. والعامل الثاني القوي: سلوك الإنسان المتمرد علىٰ ما تبدو حتميات نهائية ومعادلات ختامية للقوة؛ وهذا فرع من الأول من رغبة الصانع.

فما يبدو منطقيا جدا يقابله قدر ومشيئة الله وحركة التاريخ الدائبة في تصعيد الأمم وخسفها، وهي كلها عوامل تزلزل من هذه الحجة عامل رسوخ منطقيتها: وجوب انتصار الأقوىٰ عسكريا. وقد يحقق الله ما لا يخطر علىٰ قلب عاقل: النصر للمستضعفين. قد حدث هذا في الثورة الإيرانية ضد الشاه صاحب أحد أقوىٰ جيوش العالم وأقوىٰ جيوش الشرق الأوسط في زمانه، وحدث فيتنام ومن

السخف أيضا ألا نعتبر الانسحاب الأمريكي من العراق أقل من إعلان عجز -علىٰ أقل تقدير- عن تحقيق ما بدت المسارات المنطقية والواقعية أنه مستحيل!

وحركة التاريخ عامة كانت بين أمم تقوم علىٰ أنقاض أخرىٰ قاهرة قوية لا يُصدِّق أحد أنها يمكن أن تسقط بينما هي مُسيطِرة تماما علىٰ الآخرين، إنما هي عوامل صُغرىٰ تتعاضد وتتآزر ببطء، وعقيدة تُلهِب القلوب وصبر لعقود طويلة -يعني في النهاية بزوغ فجر أمة جديدة قوية وغروب شمس أمة قوية قاهرة لكنها قد دخلت في مرحلة الارتعاش والاضطراب.

فتلك الحجة تبدو لضعاف النظر والعقيدة والعاجزين عن فهم فلسفة التاريخ: منطقية جدا، لأنها تتجاهل العامل الرباني في تسييره، وكذلك العامل الإنساني المتصل به والذي يستحيل التنبوء يقينا بكافة ردود أفعاله ضد القهر. فتعتبر التاريخ مسيرة واحدة: الأقوىٰ لا يُقهَر من الأضعف أبدا، والضعيف الذي يواجه ظروفا قاهرة يتفشىٰ فيها اليأس في ضعاف النفوس لن يُصبِح قويا أبدا. إن اختزال العوامل المؤثرة في اللحظات التاريخية المعيَّنة والمسار التاريخي العام إلىٰ مجرد القوة العسكرية يقدم نظرية مهترئة إمبريقيا من الناحية التفسيرية قبل الناحية الإنشائية، وحتىٰ الواقعيون الأقوياء لا يعتبرون هذا المسلك إلا اختزالا غير معقول لكافة العوامل والأبنية السياسية والمجتمعية، لتصبح هذه المجموعة الواقعية: راديكالية، وليست

بصاحبة شعبية كبرىٰ في أكثر الاتجاهات السياسية العالمية تقديرا للقوة![1].

كما أنه لا يوجد تاريخ سكوني محض ولا يوجد مجتمع جامد تماما، إن ليفي ستراوس كان ذكيا حين ضرب لحركة التاريخ المفاجئة ظاهرا، مثلا بلاعب النرد؛ فهو يرمي الزهر وعنده كافة الاحتمالات العددية، وما يكسبه في لعبة يخسره في أخرىٰ[2]. فتجميع التاريخ له عوامل متداخلة ثقافيا واجتماعيا تجعل توصيف شكل واحد للتقدم وبالتالي سهولة توقع نتائج صلبة، مظهرا آخر من مهزلة الاعتماد علىٰ التنبوء اعتمادا علىٰ مقاييس القوة العسكرية فقط، مظهرا من الواقعية الراديكالية المذمومة.

فافتراض المنافقين مقدمة كامنة: بأن صحة الوعد تقتضي أن يبقىٰ المسلمون في مأمن دائم؛ وإلا فالوعد كاذب. افتراض أحمق من كافة الجهات، وهو برغم قوته ظاهرا إلا أنه -كالمعتاد- عند تفكيكه تجده ينتمي لا محالة لمدرسة واحدة، مدرسة الواقعية الراديكالية التي من الطبيعي أن تتشاءم في هذه اللحظة العصيبة وتحاول أن تنشر -إن كانت مخلصة في نشرها هذا- التخذيل والإرجاف من مواجهة عدو أقوىٰ بهذه الصورة. ومن نافلة القول

---

(١) نظرية العلاقات الدولية: ٥٤.

(٢) كلود ليفي ستراوس، العرق والتاريخ ت:سليم حداد: ٢٨.

طبعا أن اللعب علىٰ المشاعر هنا شديد الوضوح في استغلال الرهبة الجبلية من مشهد الحرب خاصة إن كانت غير متكافئة بهذه الصورة الفاضحة.

إنني لن أكون جائرا في التعميم، إن أكدت بعد استقراء كثير من كلام هؤلاء قديما وحديثا -خاصة المخذلين الذين ينظرون بجرأة للفكر الهروبي الجبان- أن كل مخذل ومرجف، نظريته علىٰ الحقيقة، في علم العلاقات الدولية، هي (الواقعية الراديكالية)، تلك الرؤية الاختزالية التي تستبعد تقريبا كل العوامل سوىٰ القوة من المعادلة والرؤية! وجدير بالذكر أن كبار الواقعيين الذين يواجهون الذم لقلة العوامل التي يضيفونها إلىٰ تحليلاتهم -يعتبرون هذه الواقعية الراديكالية، تطرف هزلي!

❀ ❀ ❀

ومنها كذلك، مجردة، حجة (وجوب التماس رضا الكافرين بعدم استمرار معاندتهم). ومثالها قولهم: لا مُقام لكم هنا لكثرة العدو فانسحبوا وارجعوا إلىٰ الاستئمان والاستجارة بالعدو.

وهي منطقية عند أصحابها كما ذكرنا، فما دام العدو ظاهرا لا محالة فلابد من الانسحاب أو طلب الدخول في حمايته. بمعنىٰ آخر: شراء رضاه وعفوه!

ولن يكون هناك داعٍ لتكرار أن هذا قول فاسد بإطلاقه وأنه لعب

علىٰ وتر المشاعر؛ فليس في كل الأحوال كانت الكثرة هي الحاسمة لنتيجة المعركة.

فلم تكن الكثرة حاسمة في بدر ولا حتىٰ في أُحُد: العدو أكثر من ثلاثة أضعاف تعداد المسلمين؛ لأن هزيمة أُحُد لم تكن بسبب التعداد وإنما بسبب الخطأ الذي ارتكبه الرماة ووقعة الإرجاف. ولم تكن حاسمة في خيبر: العدو اليهودي سبعة أضعاف تعداد المسلمين بنسبة ١٠ : ١,٤) بل ولم تكن حاسمة لصالح المسلمين أنفسهم في حُنين: أربعة عشر ألف جندي مسلم انكشفوا عند الصدمة الأولىٰ من هوازن في الوادي ولم يبق سوىٰ مئة صبروا مع النبي فنصرهم الله!

وخذ عندك حوادث يصعب حصرها عبر التاريخ بهذا الشكل، حيث جيش كالبحر ينهزم أمام جيش أصغر تعدادا بصورة واضحة؛ فلم تكن الكثرة هي العامل الحاسم دوما - وإن كانت أحد أكبر العوامل التي تصنع التفوق بكل تأكيد وفي هذا لا جدال.

الكثرة مجرد عامل من العوامل، ومهما كانت أهميتها فلن يصبح هذا العامل حاسما بذاته، وعقلا هذا لا يستقيم لأن التجربة التاريخية تثبت خطأ الاعتماد علىٰ الكثرة فقط.

والمأساة الخفية أن هذه الحجة عرضت الاستسلام والهرب أو الدخول في مظلة العدو وحمايته وطاعته باعتبار أنه حل يقينا أفضل، انطلاقا من الثابت الدائم عند المُخذّلين: الحياة -بأي وجه- أفضل من الموت!

فحياة تحت رحمة عدو للمسلمين ونبيهم وشرعتهم أفضل بالتأكيد من الموت -بالتالي فلابد من الكفّ عن هذا العدو وطلب رضاه ومصانعته! كأن هذا نفع المسلمين في الأندلس! لقد وصل مسلمو الأندلس أن صارت تسميتهم الأسبانية الموديجار (المدجنين) من شدة خضوعهم لسطوة الأسبان حين سقوط دولتهم، ومع ذلك لم يفلح التدجين إلا في تسريع عملية التطهير الديني! ثم لما ثاروا في محاولة متأخرة لوقف الإبادة الثقافية والعرقية والدينية؛ زادت أسبانيا عبر عقود النضال الإسلامي الثوري الأخير من إجراءات الاستئصال والتوحش! ربما كان مع الموديجار/ المدجنين وقتها مخذلون مخنثون يتهمون الثائرين بأنهم هم السبب الذي سرع من وتيرة القضاء علىٰ الإسلام في أيبريا!

وأنا لا أدري والله؛ كيف ينسبون هذا الجشع الحيواني للحياة في أي هيئة وأي وضع لدين الإسلام؟!

ألا يجب أن تنفىٰ هذه الدونيَّة الحقيرة عن أعز الأديان سموا واهتماما بالإنسانية.

هذا دين آخر، دين الدنيا والحفاظ علىٰ البقاء فقط. إن هي إلا حياتنا الدنيا!

فحين يحضر القتال والجهاد وتمايز الصفوف، يكون للملسمين إما خيار النصر أو الاستشهاد. ولا يدخل في هذا حديث الفقهاء عن إمكان الاستسلام للحفاظ علىٰ أرواح المسلمين؛ بل المدقق

لأشراطهم سيجدها كلها تتمحور حول ماهية (منهج العدو) في التعامل مع الإسلام والمسلمين. إن حديثهم عن الحفاظ علىٰ بيضة المسلمين لا يدخل فيه الاستسلام لمن يريد استئصال الدين والشرعة؛ ومن يُعلم يقينا أنه سيعمل السيف فيهم وفي أهليهم ويستبيح أعراضهم.

كما أنهم رفضوا أن ينسحب جيش أمام آخر في نفس تعداده أو حتىٰ يفوقه بأقل من ثلاثة أضعاف؛ فما بالك برأيهم في آحاد المسلمين الذين يريدون أن يهربوا من الدفع ويتركوا السراة وحدهم لمصيرهم!

الانسحاب ليس خيارا إن كان العدو يريد هدم بيضة الإسلام وغزو أهله، كما أنه كذلك لا يضمن أبدا الخير إن حدث، فكم من جيوش -حتىٰ في حروب غير عقائدية- انسحبت أمام عدوها لقوته ولم ترض بقتاله، فنُكِّل بها أشنع تنكيل مُمكِن! وحوادث التاريخ كثيرة ربما منها حادثة انسحاب جيش لاتفيا من أمام الجيش السوفييتي في الحرب العالمية الثانية، فصنع السوفييت المذابح في أهلها بعدما هرب أولمانيس قائدها المتفرعِن الجبان، ولم يأت هذا الانسحاب بخير علىٰ أهل تلك البلد الصغيرة. هذا ولم تكن بين لاتفيا وروسيا خصومة عقائدية ولا عرقيَّة تستأهل كل ذلك الحقد؛ إنما كان التعامي عن (منهج العدو) الشمولي الستاليني السبب الأول في هذا الاستسلام السريع!

فما بالك بانسحاب لجيش عقائدي أمام جيش يريد استئصال تلك العقيدة؟! أي خير يُرجىٰ وقتها؟!

هذا ومنهج الأمم الاستعمارية الغربي الآن لا يعرف الإبادة بالمفهوم الأسباني ثم الأنجلو ساكسوني القديم والذي تم استخدامه في الأمريكتين بإفراط، بل يعرف (منهجة) تدجين الشعوب والأديان واستخدامها هي ذاتها في وأد المقاومة والاندماج في منظومة عمالية وأيدولوجية تخدم الإمبراطورية. ولهذا السبب بالذات أخذ طراز مواجهة الإسلام صورة المنهج المخادع طوال القرن الماضي وحتىٰ الآن: منهج ملاطفة الإسلام عامة واستعباد المسلمين وسحق أي مقاومة أو رأي (مضاد للعالم الحر!). وقد تحدثت في وطن الراشدين قبلا عن هذه القضية وكتبت عن مثالي ألمانيا واليابان؛ حين تمت إعادة تهيئة شعبين من أشد الشعوب بأسا علىٰ العداء للحرب والنزاع وطمس الروح القتالية من النفوس. إن الاستسلام الآن لا يعني إبقاء حياة المسلمين لأن العدو لا يستخدم منهج الإبادة؛ بل يعني تسليم عقول الأجيال القادمة من المسلمين إلىٰ أيدي أعدائهم ليتم إعادة تشكيلها منهجيًا لتصبح . . لتصبح كما هي جماهير شعوب المسلمين الآن: أعداء كل مفاصلة وأولياء كل عدو ملاطف وأبناء إعلام الفراعنة!

❁ ❁ ❁

وسنجد كذلك حجة (وجوب التنازل عن الدين لظهور الكفر):
لا مقام لكم علىٰ دين محمد -فارجعوا للشرك.

يتهمون دين النبي بأنه هو السبب فيما يلاقونه من مصاعب ومخاطر؛ فيقترحون أن يتنازل المسلمون عن دينهم ويعودوا لدين الشرك كي ترجع الحياة إلىٰ صفائها القديم ويرتفع خطر الموت عنهم!

كلما واجه المسلمون خطر الاستئصال؛ فعليهم التخلي عن دينهم. هكذا مجردة. وهي مستخدمة تواترا بصور متباينة في أعصار قهر المسلمين. فكم من مُنادٍ بالتخلي عن الحدود أو إعادة النظر في بعض الشرائع التي يحاربها العالم كله مثل (قطع اليد- الرجم- الجزية -السبي- المواريث-جهاد الطلب) أو حتىٰ التوقف عن مطلب الشريعة كله أو الجهاد كله ولو من باب الدفع!

وعندما نقول مُنادٍ فنحن لا نحكي عن المنافقين العلمانيين وأشباههم؛ بل عن (أشباه-الإسلاميين) الذين انتشروا وصاروا في كل مكان بلحىٰ وألسن فصيحة وحكي من قول خير البرية؛ أولئك الدعاة علىٰ أبواب جهنم!

وكل هذا لأنهم جعلوا الأصل هو الحفاظ علىٰ الحياة: فأي حياة بأي وجه هي أفضل حتما من مخاطرة المواجهة كما شرحنا قبلا، لكننا هنا نتحدث حتىٰ عن المواجهة الفكرية والعقدية للأفكار العولمية السائدة. البقاء علىٰ الحياة ولو كان بالتخلي عن جوهر دين الإسلام وشرائعه وقوانينه والعودة لأديان الجاهلية والمماحكات في

تطبيق الشريعة أو التماهي مع الاتجاه العالمي السائد. أتحدث عن تمييع الخطاب وتحريف الدين!

ثم نجد الإرجاف الأشهر يقال صراحة بلا كناية بعدما انخلعت القلوب: (انجُ بنفسك)! إنه طلب ترك جيش المسلمين والفرار من جموع المجاهدين إن كان الظن الغالب القريب من اليقين هو هلاكهم علىٰ أيدي جموع الكفر. وهذه لعبة نفسية مبتذلة لا تحتاج لبيان، فهي تُخاطِب أعماق الإنسان النفسية في هيئة الحكمة: لم تدفع نفسك للهلاك مع النبي وقد تحقق ولا فرار منه؟ اهرب إلىٰ الدنيا الحلوة وانج بنفسك.

إن تقوية النزعة الفرديَّة في المُخاطَب هنا أمر واضح، التضحية بالجموع لأجل النفس الفرد: فكلما كان الغالب علىٰ الظن هلاك الجموع -فعلىٰ الفرد النجاة بنفسه!

وهذه أمثلتها كثيرة جدا في الواقع المعاصر؛ والمُعوِّق الذكي هو من يُحسِّن القعود للدنيا وترك المدافعة بتحسين سبل الدروشة الصوفية أو الدروشة العلمية الشرعية أو الدروشة الفكرية الثقافية وجعلها أولىٰ من جهاد يتحقق منه الموت! فكثيرا ما تجد مثل هذا النوع يقول لك: ليس عليك إلا نفسك! هذِّبها! وقوِّمها! فكيف تريد الجهاد وأنت فيك كذا وكذا من معايب وثغرات؟ عليك أن تكون لائقا تماما للجهاد إن أردته! ثم يعطيك منهجا للحياة كي تكون ملاكا يمشي علىٰ الأرض فإن عجزت عن أن تكونه أخبرك بأنك لا تستطيع

مجاهدة نفسك فكيف تجاهد أعداء الله! وقد رأينا وقرأنا وسمعنا أهوالا تندرج تحت هذا البند، حتىٰ صرخ أحد الأشياخ ملتاعا أن كيف تنتظر نصر الله وأنت لا تصلي الفجر في المسجد يوميا أو لا تقيم الليل! ولن أتحدث عن الاستهزاء ممن يتحدث عن فتح القدس وهو في غير (المظهر الرسمي) للملتزمين، الذي هو أول إنشاء اليوتوبيا الإسلامية التي ستفتح القدس بلا جهد!

أو ربما يخبرك بفضل طلب العلم العظيم طوال الوقت ويحاول شغلك به، وهذا كلام لا خلاف فيه؛ لكنك فجأة تجد أن غرضه استخدام العلم الشرعي كوسيلة للتعويق والتثبيط عن الجهاد أو مدافعة الحاكمين. وقد سمعنا بعض كبار أشياخ أل سعود وهم يقولون صراحة باستخدامهم التعلم الشرعي كحيلة لإبعاد الشباب عن الشأن السياسي ومزاحمة أولي الأمر!

وفي ذاك الموقف بالذات، أي في موقف تثبيط المُجاهد عن اللحوق بباقي إخوانه أثناء معركتهم -كان ذاك الفعل هو نمط آخر للفرار من الزحف، تلك الكبيرة التي توعد الله فاعلها بالويلات. فبفرض أن هلاك المجاهدين مُتحقِق بسبب قلة جموعهم أو عتادهم - فلا يجوز للمرء أن يفر وإمامه أو قادته بحاجة إليه خاصة في جهاد متعين لدفع الكافرين -إلا متحيزا لفئة أو متحرفا لقتال. أما ما يعرضه ذلك المنافق علىٰ أخيه الصحابي: هو ترك القتال مطلقا والفرار إلىٰ الحياة. النجاة من الصراع الذي يهدد بالموت.

لقد واجه خطاب رب العالمين العقل بالعقل الحق لا بالخداع مدعي الحكمة، فقال ﷻ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٦، ١٧].

فكيف يؤمن المرء بالله ثم يظن أن هناك شيئا اسمه: فرار -حقيقي لا مجازي- من الموت المُتحقق المُقدَّر من عند الله؟ في النهاية لا يوجد فرار من الموت المقدور.

❁ ❁ ❁

وقد رأينا في هذه الغزوة ذاك الاستخدام البسيط عملا والعظيم أثرا لجواسيس مهمتهم إفساد ذات البين والتحريش بين الأحلاف متمثلا في أمر النبي لنعيم بن مسعود باستخدام الحيلة للإيقاع بين الكافرين وتخذيلهم. وتجريد ذلك يؤدي لإطلاق أجراس الإنذار تنبيها لخطورة أولئك الذين يثيرون النزاعات بين المسلمين بإظهار النصح للفرق أو الانحياز المتطرف لفئة دون أخرىٰ؛ في حين أنها تؤجج المشاعر المتعصبة عند كل فريق سعيا للصدام وتفتيت وحدة الصف!

وقد تقدَّمت أجهزة الاستخبارات بصورة كبيرة عن عهد نُعيم بن مسعود! فلم يعد الجاسوس يحتاج إلىٰ التحرك في كل الفرق

المتناحرة ليؤلبها علىٰ بعضها؛ بل قد صار يكفي لجهاز الاستخبارات أن يخترق بضع فرق علىٰ الساحة بالمتعصبين الذين يشحنون الأنفس ضد كل فريق آخر ويبقىٰ جهاز الاستخبارات المُخترِق نفسه كالمايسترو لينسق المعركة من بعيد، وحالات مثل جزائر التسعينات أو سوريا ما بعد تحوُّل الثورة إلىٰ جهاد أبرز الأمثلة. وإن كان الأمر يحتاج لدقة كبيرة وحذر شديد؛ حيث أنه لابد من التفرقة بين الجاسوس المُحرِّض والمتعصب الطبيعي بسبب غلو عنده. ولا تخلو فرقة من المُحرضين علىٰ الفتنة الداخلية هؤلاء.

أخيرا تجيء الحجة المضحكة، والمستخدمة -رغم ذلك- علىٰ نطاق واسع بأنماط مختلفة حاليا، وهي (حُجَّة العدو الميتافيزيقي)!

انتشر في معسكر الكافرين أن لا يمكن مواجهة السحر والنبي سحر لهم! قالوا هذا بعدما واجهوا النبي قبلا عدة مرات وعلموا أن النبي يقينا يقاتلهم لا بالسحر إنما بالسيف. ولو كان بالسحر ما حفر الخندق بينهما أصلا!

والحجة التي انسحبوا بها نجدها بين المسلمين اليوم في كلام من يحاولون إرجاع الانتصار الغربي الحالي لأسس منها ما هو ميتافيزيقي -مثل التفوُّق الحتمي للإنسان الغربي أو قدراته العقلية/ البدنية البارزة أو حتىٰ أمور هلامية ينشرها الغربي نفسه أحيانا في إطار رؤيته المركزية الغربية أو الأوروبية تحديدا؛ كسيطرته الكاملة

المحكمة علىٰ كافة الجماعات والتنظيمات حتىٰ الجهادية منها! ومثلها تطرفات القول بالمنظمات الماسونية التي تحكم الأرض والمسيخ الدجال الذي يقود الشر! إن كل العالم وكل الجوانب يقودها الرجل الأبيض العظيم؛ أو -ربما- اليهودي اللئيم!

لماذا هزيمة الغرب مستحيلة؟ لأنه هو من يدير كل شيء يا ساذج! هو من يُخرج الجماعات الجهادية لتقاتله وهو من يقاتلها بشراسة في نفس الوقت! وما دام العدو يُدبِّر مؤامرة كونية ميتافيزيقية لا يمكن فهمها؛ فكيف النصر؟!

إن الغرب ساحر عظيم عالم كل شيء قادر علىٰ كل شيء .. فمن كاسره؟!

❀ ❀ ❀

أما عن الآيات الخاصة بغزوة الأحزاب؛ فمنها قول الله ﷻ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم
مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ
وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾
[الأحزاب: ٩-١١]

هنا يبدأ رب العالمين الآيات عن تلك الوقعة الهائلة بتذكير المؤمنين بعظمة نصره لهم بالريح والملائكة عن طريق استدعاء

المشهد المخيف الذي بدأت به الأحداث كاملا: الأعداء من فوق ومن أسفل والأبصار زائغة والقلوب ترتجف من حجم الجيوش الضخم حتىٰ تأثرت قلوب المؤمنين، يقول الإمام ابن عطية في ذلك: (تكادون تضطربون وتقولون ما هذا الخُلف للموعد: وهذه عبارة عن خواطر خطرت للمؤمنين لا يمكن للبشر دفعها وأما المنافقون فجلحوا ونطقوا).

❁ ❁ ❁

ثمَّ يشرع ﷻ في عرض شُبهات المنافقين التي قالوها في تلك اللحظة:

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب ١٢-١٧]

هنا أول أمثلة الشبهات: أن النبي وعدهم وعدا كاذبا إذ جاءت جيوش الكفر وقد تأكدوا أنها ستستأصلهم بينما قد أخبرهم منذ أيام

أنهم سيفتحون فارس والروم قبل مجيء تلك الجيوش وأثناء حفر الخندق! واستعرض رب العالمين أقوالهم الأخرىٰ التي ذكرناها قبلا.

وبعد هذا يبدأ القصف! يبدأ رب العالمين في فضح محاجَّاتهم التي سببها الجبن والخوف وضعف الإيمان أو حتىٰ النفاق في الاعتقاد نفسه وعدم الإيمان بالنبي حقا.

وينبههم لسخافة منطق هروبهم -فكيف يهربون من قضاء الله؟ يهربون من الجهاد خشية الموت إلىٰ ماذا؟ ومن أجل ماذا؟ دنيا زائلة؟! ويهربون من الله؟ من يمنعهم من الله إن أراد بهم سوءا أو رحمة؟

فيقول سبحانه:

﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب ١٨-١٩]

فيكشف الله للمعوِّقين أنه يعلمهم ويعلم رغبتهم في تعويق المجاهدين وما يلقونه إليهم من كلام يضعف القلوب عن القتال، ثم يزيد الله من فضح ما لا نعمله من غيب نفوسهم: كونهم جبناء إلىٰ درجة مثيرة للاشمئزاز! إذا جاء ما يُثِير الخوف كانوا كالدواجن ذعرا

ثم إذا أمنوا الخوف كانت ألسنتهم حادة سليطة علىٰ المؤمنين.

ومن خذلان قلوبهم أنهم يعتقدون الجيوش الكافرة لم ترحل، ويتمنون إذا جاءت لو أنهم يعيشون بعيدا في مكان ناءٍ عن المدينة لشدة ذعرهم وتخوّفهم من القتال، فقط يسألون عن أخباركم من مسافة بعيدة مأمونة! ويخبرنا رب العالمين بأنهم حتىٰ لو كانوا مع المؤمنين ما قاتلوا إلا قليلا!

يقول الزمخشري:

«المُعوِّقين: المثبطين عن رسول الله ﷺ وهم المنافقون: كانوا يقولون لإخوانهم من ساكني المدينة من أنصار رسول الله ﷺ: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه، فخلوهم وهلم إلينا أىٰ قربوا أنفسكم إلينا . . . إلا قليلا: إلا إتيانا قليلا يخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم، ولا نراهم يبارزون ويقاتلون إلا شيئا قليلا إذا اضطروا إليه، كقوله ما قاتلوا إلا قليلا . . . ﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۚ﴾ في وقت الحرب أضناء بكم، يترفرفون عليكم كما يفعل الرجل بالذاب عنه، المناضل دونه عند الخوف. ينظرون إليك في تلك الحالة كما ينظر المغشىٰ عليه من معالجة سكرات الموت حذرا وخورا ولواذا بك، فإذا ذهب الخوف وحيزت الغنائم ووقعت القسمة: نقلوا ذلك الشح وتلك الضنة والرفرفة عليكم إلىٰ الخير -وهو المال والغنيمة- ونسوا تلك الحالة الأولىٰ، واجترءوا عليكم وضربوكم بألسنتهم وقالوا: وفروا قسمتنا

فإنا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم، وبمكاننا غلبتم عدوكم وبنا نصرتم عليه».

لاحظ هذا الطبع الخسيس عند بعض المُنافقين من المُعوِّقين: أنهم إذا جاء وقت النصر والمغنم هتفوا مطالبين بنصيبهم بكل وقاحة! يُقاتل أهل الحق وهم قاعدون يخشون الموت -فإذا جاء وقت النصر طالبوا بحقِّهم في دعم الجهاد وربما المشاركة في صنع القرار!

هذا ويكشف الله المزيد مما في نفوسهم لإظهار مقدار جبنهم الضخم، فيقول عنهم:

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٠]

يقول الإمام ابن عطية:

(والمعنىٰ أنهم من الجزع والفزع بحيث رحل الأحزاب وهزمهم الله تعالىٰ وهؤلاء يظنون أنها من الخدع وأنهم لم يذهبوا بل يريدون الكرة إلىٰ غلب المدينة، ثم أخبر تعالىٰ عن معتقد هؤلاء المنافقين أن ودهم لو أتىٰ الأحزاب وحاصروا المدينة أن يكونوا هم قد خرجوا إلىٰ البادية في جملة الأعراب وهم أهل العمود والرحيل من قطر إلىٰ قطر، ومن كان من العرب مقيما بأرض مستوطنا فلا يسمون أعرابا وغرضهم من البداوة أن يكونوا سالمين من القتال).

فانظر إلىٰ هذا الكلام وقارنه بكلام المُعوِّقين عن الرغبة في الانعزال عن الناس والاكتفاء بمجاهدة النفس وتقويمها وزيادة علومها إلىٰ آخر ما ذكرنا بعضه قبلا!

❀ ❀ ❀

الفصل الرابع

خيبر

(إنّا إذا نزلنا بساحة قوم، فساءَ صباحُ المُنذرين)

أخيرا! وبعد سنوات طوال من الصراع المستمر، حصل النبي علىٰ فترة موادعة مع قريش بصلح الحديبية.

وما إن عاد إلىٰ المدينة بعد إتمام الصلح، حتىٰ جهَّز نفسه للذهاب إلىٰ عقر دار يهود الحجاز: خيبر .. المدينة المزدحمة بالآطام والحصون القوية. ذات المجانيق والأجناد الحاقدين أهل القوة والبأس.

إسرائيل الحجازية التي كانت معقل اليهود ومؤامراتهم ومأواهم الأخير، والرابضة لطعن المسلمين من الخلف في أقرب فرصة. وهي البؤرة القذرة التي خرج منها وفد مؤامرة تجميع الأحزاب علىٰ النبي.

كان لابد أن ينتهي هذا الخطر إلىٰ الأبد. كان لابد أن يخضع هؤلاء وتتم إبادة قدراتهم العسكرية تماما؛ لهذا خرج جيش النبي إلىٰ هناك. إلىٰ جانب وعدٍ من الله أن يفتحها عليه ويغنمه إياها.

وهنا أتوقف لحظة لأسأل، وحق لي أن أسأل دوما:

ماذا فعل النبي بمجرد إتمام صلح الحديبية؟ ماذا صنع فور عودته إلىٰ المدينة؟

نعم! لقد جهز الجيش فورا وتحرك إلىٰ إسرائيل الحجاز: خيبر!

توجه لقتال ذاك العدو الشرس صاحب المجانيق والحصون والمؤامرات والآلاف المؤلفة وشجعان العرب؛ في عقر داره وبين حصونه الكثيرة في ملحمة هائلة لا تماثلها بالمناسبة أية معركة مع قريش!

هذا ما جرىٰ فور إتمام الحديبية! لم يجلس في مسجده مستسلما موليّا أبا سفيان حكم المدينة!

لقد كانت الحديبية مفتاح اشتداد الجهاد والقتال وخوض الملاحم في جبهات شديدة ثقيلة .. لا مفتاح القعود والتواكل والاستسلام!

حديبية! أي حديبية تلك التي يقيس عليها أهل زماننا؟! فالله المستعان علىٰ غث العقول!

أعود فأقول أنه قد سرت أنباء تحرك الجيش، فبدأ الإرجاف بالمسلمين من يهود المدينة المتبقين أفرادا، مثل أبي الشحم اليهودي الذي كان يحادث عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي طالبا دينا له عنده فقال له الصحابي: أجلني؛ فإني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك إن شاء الله، إن الله ﷺ قد وعد نبيه خيبر أن يغنمه إياها .. فقال

أبو الشحم حسدا وبغيا: تحسب أن قتال خيبر مثل ما تلقونه من الأعراب؟ فيها والتوراة عشرة آلاف مقاتل![1].

❁ ❁ ❁

وقد كان من بالمدينة من اليهود يقولون حين تجهز النبي ﷺ إلىٰ خيبر:

ما أمنع والله خيبر منكم! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم، حصون شامخات في ذرىٰ الجبال، والماء فيها واتن، إن بخيبر لألف دارع، ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم، فأنتم تطيقون خيبر؟!

فجعلوا يوحون بذلك إلىٰ أصحاب النبي ﷺ، فيقول أصحاب النبي ﷺ: قد وعدها الله نبيه أن يغنمه إياها.

❁ ❁ ❁

وحين سأل الصحابة أعرابيا عن خيبر وهم في الطريق إليها، قال لهم: كان كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غطفان، فاستنفروهم وجعلوا لهم تمر خيبر سنة، فجاءوا معدين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عتبة بن بدر، ودخلوا معهم في حصونهم، وفيها عشرة آلاف مقاتل، وهم أهل الحصون التي

---

(١) الواقدي. ٢/ ٦٣٤.

لا ترام، وسلاح وطعام كثير لو حصروا لسنين لكفاهم، وماء واتن يشربون في حصونهم، ما أرىٰ لأحد بهم طاقة.

وقصده من ذلك أن قادة حصون خيبر قد أحضروا جيوش الأعراب لتكون معهم بداخلها لتحارب النبي؛ كأنه لا يكفيهم ما هم فيه من قوة ومنعة!

لكن الصحابي السائل عباد بن بشر ضربه وخمَّن أنه جاسوس لهم، فثبت صحة تخمينه، فقال لهم الأعرابي الحقيقة: بأن القوم في ذعر من إصرار النبي علىٰ غزوهم لذا فقد قال له كنانة: اذهب معترضا للطريق فإنهم لا يستنكرون مكانك، واحزرهم لنا، وادن منهم كالسائل لهم ما تقوىٰ به، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا فإنهم لن يدعوا سؤالك، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم![1].

مرة أخرىٰ يستعمل الكافرون أسلوبا ملتويا في زرع الجواسيس لإثارة الإرجاف والذعر بقلوب المسلمين؛ لعل هذه الأنباء تخذِّلهم عن استمرار المسير إلىٰ الحصون.

لكن ظل المسلمون علىٰ حالهم من قوة العزم والبأس، وبدأت سلسلة معارك شرسة، قد تكون هي أشرس ما خاضه النبي والصحابة في الغزوات من الناحية العسكرية. حيث كانت خيبر بالفعل عنيدة متينة الحصون كثيفة الرجال؛ لكنها قابلت إعصارا من المسلمين؛

---

(١) السابق ٢/ ٦٤١.

ففتحها الله بعدما سقطت الحصون القوية حصنا وراء الآخر.

وبذا انتهت سطوة اليهود من الحجاز نهائيا .. وضربت عليهم الذلة حتىٰ الرحيل ..

❀ ❀ ❀

وإن مسلك الإرجاف في تلك الغزوة يتمثل في قول أبي الشحم اليهودي والأعرابي وغيرهم: بأن الجيوش ضخمة وكثيرة ولن يصمد لها أحد.

فهذا إرجاف بسيط جدا واعتيادي لدرجة الابتذال، ومع ذلك هو فإن التخويف من قوة الجيش المعادي وتفوقه مقارنة بالجيوش الأخرىٰ التي واجهت جيش المسلمين قبلا هو المفضَّل وربما الأكثر تأثيرا!

وإن لي ملاحظات علىٰ هذا المسلك استنباطا مما حدث في تلك الغزوة.

فأولا: أن هذا التخويف لم يُبن علىٰ أسس كاذبة؛ فجيش اليهود عشرة أضعاف جيش المسلمين تقريبا. إمكاناتهم العسكرية الاستراتيجية في أفضل أحوالها من حيث التسليح والتحصين؛ فحصونهم قوية ومتعددة وقلاعهم مشيدة في أماكن عالية تشرف علىٰ ساحات الحصار وبداخلها المجانيق ومكتفية ذاتيا من الطعام والشراب وقادرة علىٰ مواجهة الحصار لفترات طويلة جدا وجيوشهم

الرابضة في الحصون ذات تمرس بالقتال وبينهم شخصيات مخيفة قوية جدا ومشهورة ببسالتها وضخامتها وقوة بأسها في القتال مثل الحارث أبي زينب اليهودي أحد قادة اليهود الشجعان الذي قتله أبو دجانة ومرحب المقاتل الضخم الشرس الذي برز للمسلمين فقتله محمد بن مسلمة وعلي بن أبي طالب. وهنا ملحوظة أخرىٰ فرعية لهواة عدم فهم التعميمات؛ فلم يكن معنىٰ قول الله ﷻ عنهم أنهم جبناء عموما خلو اليهود مطلقا من الصناديد والشجعان الأقوياء؛ كيف وقد جرىٰ ما جرىٰ في خيبر؟!

وكم من مرة سمعت أحدهم يتحدث بثقة مطلقة أننا إذا واجهنا اليهود بالإسلام هزمناهم بسهولة فهم جبناء ويستحيل صمودهم؛ فأتعجب من هذه الثقة وهذا التعميم الذي قد يكون له آثار كارثية هائلة في ساحات المواجهة من الناحية القتالية والناحية المعنوية! إن أكبر كارثة تواجه المقاتل العقدي الواثق بنفسه أن يتحرك باعتبار الآخر جبان متخاذل ضعيف سيهرب في أول فرصة؛ لأن الآخر إن صمد سيهدم هذه الخرافة في نفس المقاتل المسلم أثناء لحظات حرجة جدا: وسط المواجهة! وسقوط الخرافة سيعقبه أمواج من الآثار المعنوية المربكة التي ستخفض من كل إمكاناته البدنية والعقلية لا محالة! ولا أقول أن هذا سمعته بثقة عمياء عن اليهود فقط؛ بل قد سمعته عن الأمريكان والغربيين بل وحتىٰ عصابات الشيعة! هناك بشكل عام فكرة منتشرة مفادها أن المقاتل صاحب العقيدة الفاسدة

جبان خوار في المعتاد وسيهرب من أمام المسلم صاحب العقيدة النقية إن تواجها! وهذه من جملة أساطير الإسلاموطوبيا التي يجب ترشيدها في العقل الجمعي الإسلامي.

نعود للإرجاف فنقول: أننا لا ريب أمام إرجاف له أسس قوية حقيقية؛ فكيف واجهه المسلمون؟

بالإيمان واليقين بنصر الله دون الاستهزاء بالعدو! بالعقيدة الراسخة أن نصر الله مؤيَّد به أهل الملة أصلا إلا إذا جاءت المشيئة بغير ذلك مفاجأة وتنبيها لوجوب البحث والاستقصاء عن أسباب السقوط!

والعقيدة المتينة أخطر ما يواجه الإرجاف، كل إرجاف.

فبرغم تلك الظروف المخيفة وبرغم ضخامة المعارك بين المسلمين واليهود في خيبر. إلا أنك لا تكاد تقرأ حرفا عن أي تأثير له في صفوف المسلمين! لقد كانوا يواجهون أي تخويف بقولهم إن الله قد وعد نبيه خيبر. ببساطة آمنوا بذلك فكانوا كالجبل الراسخ في مواجهة أصعب معركة خاضوها في مغازيهم مع النبي.

إذن هي العقيدة في مواجهة الإرجاف. العقيدة في مواجهة العدو الضخم المخيف صاحب القوة الساحقة. عقيدة محمد بن مسلمة أمام مرحب البطل اليهودي الضخم المخيف: هنا ينتصر المُقاتل صاحب العقيدة والإيمان. بإذن الله؛ فإن لم يأذن فإنما هي مرة وفي العودة النصر.

وثانيا:

لابد أن نتنبه إلىٰ اهتمام اليهود ببعث الأعرابي لتخويف النبي والإرجاف بالمسلمين وتذكيرهم بالفارق المخيف في القوة والذي برغم أنه لا يغيب عنهم إلا أنه من الضروري تذكيرهم به عدة مرات بكل الطرق كي يدفعوهم دفعا للتفكُّر فيه ليتفشىٰ فيهم الإحباط والتخوف من مصير حالك إن واجهوا اليهود عمالقة القتال.

وهذا هو نفس دور الإعلام العالمي والمحلي الوظيفي لإحباط نفسية المقاومة ضد أعداء المسلمين والمنظومة العالمية القوية الشرسة والمهيمنة بلا رحمة. وقد ذكرنا قبلا لعب نعيم بن مسعود هذا الدور في غزوة بدر الموعِد.

ثم ثالثا: نلاحظ كيف أن الإصرار العقدي علىٰ خوض القتال من جانب المسلمين والاستهتار بالإرجاف لعب لعبته كذلك؛ فأثار ذعر اليهود من النبي وبدأ يؤتي أكله في نفوسهم وحالتهم المعنوية المتدهورة التي أوصلتهم للتسليم في النهاية بعد سقوط الحصون القوية الكبرىٰ ومقتل أشد المحاربين والأبطال اليهو. ثم صاروا إلىٰ وضع ذليل عمالا للنبي وللمسلمين حتىٰ أجلاهم عمر بن الخطاب في خلافته ضمن من طردهم من الحجاز بلا رجعة. فكأن الإرجاف يرتد إلىٰ صاحبه والسحر يؤذي الساحر وحده؛ فقط إن واجه نفوسا صامدة قوية صلبة عقديا لا تتأثر به.

الفصل الخامس

المقشقشة تبوك!

تبوك!

غزوة العسرة!

آخر الغزوات الكبرىٰ للرسول ﷺ في التاسع من الهجرة.

الغزوة التي نزلت عنها أثقل آي القرآن علىٰ المُخذلين والمُرجفين والمُنافقين؛ بل وكل القاعدين عن الجهاد عموما!

نزلت المقشقشة! المبعثرة! المشردة! المخزية! الفاضحة! المثيرة! الحافرة! المنكلة! المدمدمة! سورة العذاب![1]

نزلت: سورة التوبة!

غزوة عُسرة! وسورة مُشرِّدة فاضِحة مُعذِّبة مُنكِّلة مُدمدِمة!!

لماذا كل ذلك؟!

❁ ❁ ❁

العام التاسع من الهجرة كان يعني رسوخ سيادة النبي ﷺ علىٰ

---

(١) الكشاف: ٢/ ٢٤١، أحكام ابن العربي ٢/ ٤٤٤.

العرب، وما قبل ذروة نجاح دعوته في حياته التي ستتوج بحجة الوداع والبحر الزاخر من المسلمين الذين سيحضرونها.

لقد انتهت السنوات المخيفة. انتهىٰ عام الأحزاب والتهديد بالإبادة. انتهىٰ خطر قريش أم القرىٰ، بل رُفعت راية المسلمين خفاقة في قلبها. انتهىٰ خطر التمرد الضخم التابع لسقوط مكة بوأد تجمع المتمردين في حُنين. كل المخاطر العربية الكبرىٰ قد تلاشت. وكل الغزوات الداخلية الكبرىٰ قد توجت بالنجاح . .

آن لأتباع الرسول أن يستريحوا، ويقطفوا ثمار هذا النجاح. أن يتنعموا بالدنيا جزاء وفاقا علىٰ حسن عملهم خلال الأعوام المزلزلة الماضية. أليس هذا هو الطبيعي؟

في وسط هذا الهدوء. سرت بين الناس كلمات تجار الشام، ونصارىٰ العرب: الروم يجهزون جيشا لغزو العرب وقمع الدين الإسلامي![1]

سيظهر بعد ذلك أن تلك كانت شائعات وأقاويل مُكبَّرة من التجار، لم يكن لها أثر حقيقي علىٰ أرض الواقع. ومن الواضح أن عموم أهل المدينة لم ينظروا للأمر بجدية بالغة لأنهم صُعِقوا بقرار الحرب.

الجو شديد الحرارة في أصعب أوقات الصيف. والثمار قد

---

(١) مغازي الواقدي ٣/ ٩٩١، فتح الباري ٨/ ١١١.

أينعت علىٰ النخل والشجر وحان وقت التمتع بطعمها في صحبة الأهل والأزواج والأبناء والعشيرة المقربة من أصدقاء وأقرباء.

باختصار شديد: هذا هو أفضل وقت في العام كي يُصاب العربي بحالة من الكسل والهدوء والجلوس في ظل البيوت للمسامرة والنوم.

فجأة جاء نبأ كالصاعقة: الرسول يأمركم بالاستعداد! سنغزو الروم!

الروم!

الروم؟!!

يمكنك تخيُّل وطأة الصدمة علىٰ قلوب الكثيرين، وليس المنافقين فقط! ينزعهم من الهدوء والدعة والظل والاستمتاع بسلام المنتصرين الذي كابدوا لأجله سنوات طويلة من القتال العربي العربي والعربي اليهودي إلىٰ السير لأكثر من سبعمئة كيلومتر وسط قيظ يشوي الأحياء؟!

إن الغزو هذه المرة كان قرارا عسكريا وسياسيا من الرسول ﷺ، ولم يكن بوحي يخصص الغزو بالروم تحديدا، وهو ما سيتضح في نهاية المقام بتبوك عندما سيستمع الرسول لقول صحابته بالعودة بعدما تبين عدم صحة الشائعات وتخاذل الروم عن مواجهته. فقد سأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه صراحة حين شاورهم النبي في التقدم نحو الروم

أكثر من تبوك: إن كنت أُمرت بالمسير فسِر! فرد عليه النبي بأنه لو كان مأمورا بوحي ما شاورهم![1].

هذا شيء هام جدا لتتعرف علىٰ ما وراء صعود شأن المنافقين والمُخذلين في إرجافهم وتخذيلهم عن تلك الغزوة بالذات. ؛ فهي ليست أمرا إلهيا. وبرغم أن الجميع لم يكن يعلم هذا إلا أنه من الواضح أن المنافقين قد روجوا أن هذا رأي نبوي بشري خاطئ من الجهتين العسكرية والسياسية.

فمن الجهة العسكرية: هذه مواجهة في أسوأ الظروف الجوية الممكنة بالنسبة لجيش المسلمين. في وقت شديد الحرارة يستظل منه الجميع بكل الصور والحجج.

والمواجهة هذه المرة كانت بخيرة الجند وصفوة الصحابة ولم يبق مسلم قاعد إلا مأمورا بذلك من النبي؛ كعلي بن أبي طالب مُستخلفا في أهل البيت/ أو صاحب عذر أو مرض/ أو منافق!

إذن فقد أرادها النبي مواجهة كبرىٰ ثأرية لمؤتة؛ لكن خطورتها أنه إذا حدث كسر فيها فستضيع بيضة الإسلام بمقتل الكتلة الأكبر كمّا وكيفا لجيش المسلمين! وفيهم النبي نفسه!

أخطر من ذلك ما حدث من ابن سلول، الذي جمع معه جندا كثيفا مخادعا النبي بأنه سيذهب معه إلىٰ تبوك ثم بقىٰ خلفه ولم يتقدم!

---

(١) مغازي ٣/ ١٠١٩.

لقد صار جيش المسلمين في غزوته لتبوك محصورا بين العدو الرومي شمالا وعسكر المنافقين جنوبا قاطعين عليه طريق عودته إلىٰ المدينة؛ بالتالي أي هزيمة عسكرية ستكون وبالا علىٰ البقايا العائدة التي ستجد المنافقين علىٰ أهبة الاستعداد لحصدهم واستعادة السيطرة علىٰ المدينة بقبضة حديدية وبلا مجهود يذكر!

ثم ماذا بعد الوصول لتبوك؟ عسكر النبي كانوا في حدود الثلاثين ألفا . . يواجهون من؟ الأنباء كانت تأتي بأن الروم يجهزون جموعا كالبحر الزاخر، وبقيادة هرقل نفسه! هذا يعني أن أقوىٰ قوة عسكرية علىٰ وجه الأرض وقتها، القوة التي هزمت الفرس لتنفرد وحدها بزعامة الكرة الأرضية عسكريا، والتي كانت حشودها في بعض المعارك تصل لمئتي ألف أو أكثر: هذه القوة المهيبة المخيفة ذاهب أنت إليها بينما هي متحفزة لك، للقائها بما يقارب ربع جندها الذين تستخدمهم في معاركها! هذا من ناحية الكمّ! أما من ناحية الكيف فكارثة أكبر! أنت ذاهب لمواجهة أعظم إمبراطورية عسكرية في التاريخ حتىٰ وقت النبي! هذه إمبراطورية بُنيت بالعسكرية المنظمة وبالجند المحترفين وبالتخطيط والخبرات القتالية المتراكمة والمتنوعة، بل هي مشهورة حضاريّا بأنها لم تكن شغوفة بأكثر من العسكرية سواء في هيئتها الغربية القديمة أو هيئتها البيزنطية، وقد كان المقوم الحضاري الروماني الرئيسي هو العسكريتارية!

هذه إمبراطورية تجيد تماما كافة فنون قتال البحار، قتال

الثلوج، قتال الصحراء، قتال الغابات، المعارك السريعة، الحروب طويلة الأمد. لها تاريخ طويل في كل طقس وكل أرض وكل عدو وكل خطة.

إمبراطورية ورثت كاسري حنبعل قبلا، عبقري الحروب الذي لا مثيل له حتىٰ زمان خالد بن الوليد. كاسرة بلاد الإسكندر. المنتصرة علىٰ أرض الفراعنة والمسيطرة علىٰ الأفارقة ومتوحشي أوروبا.

كل تلك الإمبراطورية الخبيرة العتيقة المهيبة المخيفة: تغامر معها عسكريا بجند لم يعرفوا خارج جزيرة العرب مشهد قتال؟!

إن الميزان العسكري شديد الاختلال في الكم والكيف!

❁ ❁ ❁

أما من الجهة السياسية، فقد كانت هذه الغزوة أيضا مخاطرة.

فقد كان هذا أول عام (استقرار) حقيقي للمسلمين . . ألم يكن لهم أن يطالبوا وقتها بالتركيز علىٰ البناء الحضاري وإيقاف العمليات العسكرية -خاصة شديدة الخطورة منها- وبناء الدولة الفتية والتركيز علىٰ الدعوة وجلب الأنصار؟

هذه النقطة رئيسية وهامة جدا إن فكرت فيها جيدا: فقرار استمرار العمليات العسكرية بينما الدولة لديها فرصة قوية للتركيز والبناء، وإخراج كافة الكفاءات والمهارات وأقوىٰ الناس إيمانا إلىٰ

هذه الغزوة، وعلىٰ رأسهم النبي نفسه، يعني أن البناء السياسي كله -لا العسكري فقط- سيصير مُهددا؛ بل إن مجرد التفكير في استمرار العمليات القتالية وتوسيعها خارج حدود الجزيرة العربية، بينما الكيان السياسي للدولة ما زال يحتاج إلىٰ سنوات طويلة كي يكتمل ويضاهي البنيان السياسي المُعقد للدول الحضارية الأخرىٰ كان تفكيرا خاطئا في الظاهر السطحي!

فالقرار من الناحية السياسية والعسكرية الظاهرة خطأ ظاهر. بُني علىٰ إشاعات لم تثبت بل ثبت كذبها فيما بعد. وهو مخاطرة رهيبة قد تنقلب إلىٰ إبادة ينتصر فيها الصليب من أعلىٰ والمنافقون من أسفل. وهو ليس بوحي إلهي حتىٰ يثق المسلمون تماما في صحته المطلقة!

وستجد أثر تلك الأفكار والنقاط كلها عندما نناقش المحاجَّات المنقولة التي نشرها أهل التخذيل فيما بعد!

ومع ذلك: سمىٰ الله المخذلين عن تلك الغزوة بأهل النفاق! وتوعدهم بأشد الوعيد! وحرَّق النبي مكان تجمع المُخذلين عنها في بيت سويلم اليهودي![١]

وكانت تلك الغزوة فتحا حقيقيا علىٰ المستوىٰ النفسي المعنوي! وهي من ستعضد قلوب المسلمين بعد أعوام في قتالهم

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥١٧، البداية والنهاية ٧/ ١٤٧.

الرهيب لإجلاء الروم عن الشام وشمال أفريقيا.

فكيف ذلك؟

فلنذهب إلىٰ البداية، بعيدا عن كل الأفكار القوية جدا المذكورة سابقا، والتي تبدو بديهية كفاية كي تستخدم معانيها الكلية في التخذيل .. هل فكرت في كيف اتخذ النبي ﷺ قراره كقائد سياسي وعسكري ابتداء؟

لقد كانت الأنباء القادمة بحشود الروم مقلقة، حتىٰ إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد تحفز جدا لأخبار الزحف والتحالف مع نصاري العرب. هذا الذعر الذي لو استمر لأرجف قلوب المسلمين في المدينة ونشر بينهم الخوف الدائم واستقرار الشعور بالدونيَّة والتخوف من مواجهة الروم كان لابد من مواجهته بأي شكل وإيقافه؛ خاصة بعد ما جرىٰ في مؤتة قبل عام واحد من انكسار جيش النبي كسرة مؤلمة .. فمن نحن أمام الروم؟

كيف كان للمسلمين أن يتجرأوا بعد ذلك علىٰ مجابهة تلك الإمبراطورية المهيبة إن تراجع النبي نفسه عن المبادرة إليها بذاك القرار الشجاع الخاطف؟

إن تخوف النبي -وحاشاه- عن مواجهة تلك الإمبراطورية في حياته رغم أنه كان في قوة ومنعة، فكيف كان سيحاربهم من بعده وهم أدنىٰ مكانة ومرتبة وشجاعة وتأييدا من المولي؟!

ألم تكن لتصبح سُنَّة عدم مواجهة الروم، بل عدم مواجهة قوىٰ أعظم وأخطر، حتىٰ وإن هددت المسلمين وقررت غزوهم -هي الأصل؟

ثم ماذا لو صدَقت الشائعات وجاء الروم فعلا لحصار المدينة؟ أي فاجعة كانت ستحدث هذه المرة وقد جاء من يجعل الأحزاب التي اجتمعت قبلا لحصار رسول الله كحشود الأطفال الأشقياء جوار تاريخه العسكري الدموي؟ إن تخريب الرومان الأقدمين لعدوتهم قرطاج -حاضرة زمانها- وتركها خرائب من رماد تنعق فيها البوم، لم يكن الحادث الأول ولا الأخير بالنسبة لأوروبا وعملها العسكري مع مدن قيادات التمرد.

وأي مشكلة كانت لتحدث إن حدث التجابن فجاء الروم واستمر حصارهم للنبي في المدينة وتحالفوا أولا مع المنافقين داخليّا لتسريبهم إلىٰ داخل حصونها ومداخلها، وثانيا مع باقي العرب الذين لم يكن الإسلام قد ثبت في قلوب الكثيرين منهم وكانوا يودون انتهاز أقرب فرصة للثأر ممن أثكلهم في بدر وحنين؟!

إن قرار استمرار النبي في المدينة في حالة تحرك الروم فعلا وتجاهل ذلك الزحف: كان ليصبح وبالا علىٰ كافة الجبهات؛ السياسية والعسكرية والدعوية . . كل شيء كان لينهار!

ولم يكن هناك حل أفضل من الشجاعة: الغزو . . الذهاب إليهم في عقر دارهم، والهتاف بأعلىٰ صوت: أين أنتم؟ أين حشودكم يا بني الأصفر؟

هذا ما جرىٰ فعلا بلسان الحال! وكان أثره عظيما علىٰ المسلمين عسكريا وسياسيا ودعويا. ونزلت بعدها السورة الفاضحة، المخزية، المزلزلة: نزلت سورة التوبة. لتظهر لنا الآثار الخفيَّة لتلك الغزوة التي أبدا لا يُدركها الظاهريون السطحيون من أهل التخذيل والإرجاف.

❀ ❀ ❀

سأكرر هنا ما أقوله دائما: أن حجج المعارضين للغزوة قوية جدا، ومنطقية للغاية، والأفكار التي تحرك من أجلها النبي قوية جدا .. ومنطقية للغاية كذلك!

لذا نكرر أيضا: الأمر ليس سهلا أو يسيرا، ومن يعتد السماع لأهل التخذيل سيكون في غاية الحمق إن ظن حصانة قلبه وعقله عن التأثُّر. ناهيك عمن يهتف دائما: حجج المخذلين واهية! -يا رجل! لو كانت كذلك لماذا بادر الرسول إلىٰ حرق تجمعاتهم في مسجد الضرار بلا نقاش وجدال وسفسطة؟!

لكن دائما أمر الله هو الفيصل: وقد أمر الله نبيه بالقتال والتوكل علىٰ الله والشجاعة في المواجهة، ولم يأمره بالجبن أوالتخاذل أو إيقاف القتال مطلقا بحجة التفرغ للبناء الحضاري والسياسي!

لذا فمحاجات أهل التخذيل كانت مردودة مقدما: فقد كانت

تتكئ بصورة رئيسية على الجُبن والخوف من فقدان الحياة والتنعم. إن هذا المُنطلق مُختلف تماما عن مُنطلق عمر بن الخطاب والصحابة الذين شاورهم النبي في تبوك فأشاروا عليه بالعودة وعدم المغامرة لأبعد من هذا بعدما تحققت كافة الأهداف الكبرى لخروجهم.

فمُنطلق الصحابة ظاهر في قول عمر: فلو رجعت هذه السنة حتى ترى، أو يحدث الله ﷺ في ذلك أمرا.

هذا مُنطلق من ذهب إلى أعماق العدو. لم يخشه ولم يخش مواجهته. ولا يُخذِّل عنه ولا يتخاذل عن مقارعته. مُنطلق شجاعة حكيمة وجدت الأفضل تأجيل المواجهة قليلا ما دام قد ثبت أنها ليست مفروضة أو واجبة. فأين هذا من ذاك الأبعد؟!

إن منطلق المُخذلين كان غير ذلك: كان منطلق الخشية مطلقا من مواجهة الروم! منطلق الجبن والخوف وتفضيل الحرص على الحياة وكراهية المخاطرة بها في قتال قوة أكبر! منطلق القعود أبدا عن حرب عسكر إمبراطورية أقوى!

هل أدركت الفارق بين هذا المُنطلق وذاك؟ الفارق بين من يتخذ المواجهة مبدأه والمُطلق الذي لا يتقيد إلا لطارئ - وبين من يتخذ القعود والتجابن مبدأه والمُطلق الذي لا يتقيد لطارئ أو لغيره!

والمُخذِّل يكون بارعا وعال الدرجة بقدر مهارته في إظهار نفسه من الفئة الأولى -فيدعي الحكمة في تبيان أن ما نعيشه هو الطارئ

الأول! وهذا نوع أكثر مكرا ودهاء، وخطورة كذلك!

والفيصل في كونه من الفئة الأولىٰ أم لا؛ هو مواقفه في المواجهة: هل صمد في مواجهة حقيقية قبلا؟ هل كان كعمر ﵁ مُبادرا إلىٰ غزو العدو حين جاء وقت الغزو؟ أم أنه يتحجج كل مرة ويتهرب ولا يواجه أبدا لا بفعل ولا بكلمة؟! أم أنه ممن تأثروا بأهل التخذيل فقعدوا بعد شجاعة وإقدام؟

❀ ❀ ❀

وأغلب ما استخدم في هذه الغزوة من حجج، يكاد يجمعه قول ابن سلول الشامل:

- يغزو محمد بني الأصفر، مع جهد الحال والحر والبلد البعيد، إلىٰ ما لا قبل له به! يحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب؟ والله لكأني أنظر إلىٰ أصحابه غدا مقرنين في الحبال![1]

ومن الواضح أن أقوىٰ الحجج التخذيلية هي القائمة علىٰ إبراز عدم مجاراة العرب للروم في فنون القتال، لأنها ستتكرر وسط مسيرة رسول الله إلىٰ تبوك، سيكررها مجموعة من المنافقين قائلين: تحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم؟ والله لكأنا بكم غدا مقرنين في الحبال![2]

---

(١) مغازي ٣/ ٩٩٥.

(٢) مغازي ٣/ ١٠٠٣.

وفي لفظ سيرة ابن هشام جاءت أكثر تخصيص: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا![1]

وسيقول جمع آخر من المنافقين أثناء الزحف: يظن هذا أنه يفتح قصور الشام وحصونها!![2]

وكل هذه الجمل تبين أن مقصود المخذلين لم يكن فقط إظهار الفارق العددي، بل إظهار وضاعة شأن العرب من ناحية الفنون القتالية العسكرية والحضارية التي يتفوق بها الرومان. أزمتهم في الكيف وليس الكم فقط.

هذا وقد جمع ابن سلول اللعين في قولته أربع حجج تخذيلية قوية، وكانت أكثرهم ثقلا هي ما ثبت وتكرر أثناء الغزوة من المنافقين، مرفقة بإرجاف وإرهاب نفسي قوي جدا بتوقع سقوط المجاهدين في الأسر المهين!

أما الحجة الأولىٰ فهي جهد الحال، والثانية كانت التحجج بالحر، والثالثة بُعد البلد التي سيذهبون إليها، والرابعة القوية هي إثبات خطأ قياس قتال الروم بقتال العرب. وأن هذا القياس الخاطئ سيجر كارثة يفنىٰ فيها المسلمون.

وسيستخدم الجدُّ بن قيس هذه الحجج كذلك حين سيبرر لابنه

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٢٥.

(٢) أحكام ابن العربي ٢/ ٥٤٢.

المجاهد سبب عدم خروجه قائلا:

- يا بنىٰ، ما لىٰ وللخروج في الريح والحر والعسرة إلىٰ بني الأصفر؟ والله، ما آمن خوفا من بني الأصفر وإني في منزلي بخربىٰ! فأذهب إليهم فأغزوهم!! إني والله يا بني عالم بالدوائر![1].

فهو هنا استخدم حجة الحر والعسرة. وحجة قوة بطش الروم. ثم نتنبه إلىٰ ادعاء الحكمة في عبارته (إني والله عالم بالدوائر) . . هذه العبارة التي يكررها المخذلون دائما بألفاظ مختلفة، حيث يدعون كل مرة سعة علومهم وكثرة فقههم بالتاريخ وسير الأمم وبالتالي كان هذا هو سبب التخذيل!

ونلاحظ أنه حين سيواجه الجموع من بني سلمة سيستخدم أكثر حجة حسيَّة مؤثرة علىٰ النفوس في وقتها، إنها حجة الحر، حين قال لجبار بن صخر ونفر معه من بني سلمة: يا بني سلمة، لا تنفروا في الحر . . لا تخرجوا في الحر![2].

ثم سيستخدم الجدُّ أمام الرسول حجة ذاتية سخيفة، لكن عند تجريدها سنجدها تستخدم بألوان أخرىٰ، وهي حجة خوف الافتتان بالنساء! فسيقول للنبي: أو تأذن لي ولا تفتنىٰ؟ فوالله، لقد عرف قومي ما أحد أشد عجبا بالنساء مني، وإني لأخشىٰ إن رأيت نساء بني

(١) مغازي ٣/ ٩٩٣.

(٢) مغازي ٣/ ٩٩٣.

الأصفر لا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ فقال: قد أذنت لك![1].

وبتجريد هذه المحاجات نجد صورة الأولىٰ، حجة تفوق الكيف، هكذا: كلما كان العدو متفوقا في العدة والعتاد والخبرة - فالهزيمة حتمية.

ونجد صورة الثانية، حجة العيوب الشخصية، هكذا: كلما كان في المرء ضعف ذاتي غير بدني يخاف علىٰ نفسه الفتنة -جاز له القعود عن الجهاد.

وصورة الثالثة، حجة الظروف البيئية، هكذا: إن كانت الظروف الخارجية صعبة -فيجب تعطيل الجهاد لحين تحسنها.

❁ ❁ ❁

أما الحجة الأولىٰ (حجة التفوق العلمي والعسكري) فيستغل قائلوها علو شأنهم لإيهام الناس أنها ناتجة من قياس تام الصحة ومؤلف من مُركَّب حسي وعقلي متين: ففيه المتواترات والمُجربات والحدسيات. وكلها تؤكد حتمية فوز القوي علىٰ الضعيف! أكرر مرة أخرىٰ هنا ما ذكرته قبلا أن هؤلاء هم غلاة الواقعية السياسية! لذا كان إطلاق الأمر بسور كلي هو أساس المُغالطة، فالقياس غير معتبر

(١) مغازي ٣/ ٩٩٢.

برهاني -لعدم صدق الإنتاج في جميع الأحوال! وبضياع هذا الشرط يفسد إطلاق هذا القياس. ويزداد فسادا في حال استعراض تاريخ المواجهات القائمة علىٰ أصول دينية بشكل عام أو عقائدية بشكل خاص.

❊ ❊ ❊

إذن الروم أكثر تطورا وتفوقا في الكيفية العسكرية والعلمية من العرب - فالنصر من نصيب الروم الأقوىٰ قطعا! لقد كانت لعبة ابن سلول العقلية حينها هي تذكير المسلمين بهذا ومخالفة أحلامهم لما هو ضروري وثابت بالتجربة والتواتر والحس؛ وأن الناتج من حجته هو اليقين بفشل العرب أمام الروم؛ وبالتالي خطأ استفزازهم عسكريا ومحاربتهم!

إن الأسس الكامنة هنا هي أن الفجوة الحضارية العسكرية والعلمية بين أمة وأخرىٰ تعطي مزية هائلة وفجوة حتمية لا تُسدُّ بينهما، وأن الثابت العقلي والتاريخي بالمشاهدة والتجربة والتواتر هو استحالة انتصار الأمة الضعيفة علىٰ الأمة القوية الكبرىٰ ما لم تنغلق هذه الفجوة؛ وبالتالي فالواجب هو العمل علىٰ سد الفجوة قبل الشروع في أي عمل عدواني ضد الأمة القوية.

وهذه الأسس تبدو ظاهريا صحيحة ثابتة لا بأس يها، وكالعادة فيها من الصدق ويستحيل كون عكسها بإطلاق هو الصحيح، وإلا ما

أمرنا الله بإعداد كل ما يستطيعه المسلم من العدة للجهاد كي نصبح أقوىٰ والآخر أضعف؛ لكن عند استقراء حوداث التاريخ لا تجد الأمر صحيحا بإطلاق يصلح لوضعه كقاعدة ثابتة كما يصنع المخذلون!

فالحضارة جهد إنساني بشكل عام، ومحاولة تقييمها باستقراء مؤسس علىٰ الفروق المادية الظاهرة، كالتفوق العلمي والعسكري، دون اعتبار لاحتمال حدوث وهن وضعف واختراق في الجانب الإنساني/النفسي في حضارة العدو وجيوشه أمام قوة أضعف -هي ظاهرية مادية غير سليمة لا عقلا ولا شرعا ولا تؤيدها كثير من الحوادث التاريخية؛ فالتواتر والتجارب -علىٰ العكس- يؤكدان أن هذه القواعد غير كلية مطلقة.

فالأساس الإنساني للحضارة لا يمكن إهماله، ولا يمكن ظهوره جيدا إلا في ميدان الحرب نفسها؛ فأنت قبل الحرب لا تستطيع تحديد مدىٰ قدرة عدوك علىٰ صموده النفسي الداخلي وتحمُّل المجتمع الإنساني المعادي للضغط الذي يسببه هجومك عليه؛ بالتالي فهذا العامل الحاسم في المعارك يظل من الغيب حتىٰ تبدأ المعركة ويستمر ميعاد الانهيار النفسي والإنساني غيبا حتىٰ نهايتها. وهي ميزة بكل تأكيد للعدو الأضعف، وإن أجاد استخدامها جيدا سيمكنه قلب الأمور لصالحه.

وأما عدم سلامتها من الجانب التاريخي فالأدلة أكثر من أن

تحصىٰ، منها هزيمة الحضارتين الفارسية والرومانية البيزنطية بعد عقود قليلة علىٰ يد المسلمين رغم أنهم كانوا بالفعل أمة بدوية من أبعد الأمم عن مقومات الحضارة بشكل عام، ولم يكن الفارق الحضاري المذهل بين المسلمين وأعدائهم هو دائما العامل الحاسم في المعارك؛ بل من أرض المعركة نفسها تعلّم المسلمون الكثير من التكتيكات الحربية، حتىٰ بدأوا هم أنفسهم في ابتكار تكتيكات جديدة كما حدث في معركة ذات الصواري من ربط سفنهم بسفن الأعداء وتحويل البحر إلىٰ ساحة قتال بري وكانت هذه مناورة جديدة علىٰ سادة البحار وقتها!

وقد سقطت الحضارة الإسلامية الضخمة نفسها في عهد العباسيين أمام قوة أكثر جهلا وبداوة مثل المغول. ومن الواجب التأمل لنباهة المغول في إدراك أهمية حسم العامل النفسي/الإنساني لصالحهم كأمة ضعيفة تواجه أمة أقوىٰ، فأظهروا وحشية هائلة ونشروا ذعرا ضخما دائما أينما حلوا لتعويض التفوق الفني العسكري والحضاري الإسلامي. أما الأمثلة الحديثة، فظاهرة واضحة في عدم قدرة أقوىٰ قوة علىٰ وجه الأرض، أميركا، من حسم الحروب نهائيا علىٰ الأرض في البلاد التي اجتاحتها سابقا بقسوة بالغة؛ برغم انتصارها في مئات المعارك فعليا.

إذن الصحيح هو سلب العموم من حجج التخذيل عن لقاء الروم، فالصحيح هو أنه ليس كلما كان العدو متفوقا في الكيف

فالهزيمة حتمية وعدم مجابهته هي الصحة.

بل قد تكون المواجهة لها آثار كبيرة علىٰ الجانب الإنساني في الجهتين، أثر سلبي علىٰ العدو وإيجابي هائل علىٰ المجاهدين. وهو ما حدث بالفعل في تلك الغزوة كما بيَّنَّا سابقا. وقد حدث بالفعل أنه في ظروف كثيرة سقطت حضارة كبرىٰ في هزيمة أمام قوة أصغر كانت لا تزال تحبو في الجوانب العلمية والفكرية وحتىٰ الفنية العسكرية؛ فاللعب علىٰ وتر الإطلاق في تلك القضايا والمقدمات هو المغالطة التي يعتمد عليها بشدة أهل التخذيل والإرجاف، بإظهارهم أن هذه أمور مسلم بها وبرهانية لا تقبل الجدل، ولزيادة تأكيدهم علىٰ قوتها البرهانية يلجأون إلىٰ ادعاء الحكمة وكلية المعرفة بمآلات الأمور كما فعل الجدُّ بن قيس.

❀ ❀ ❀

أما الحجة الثانية، حجة العيوب الذاتية؛ فهي في العموم حُجة خطابية، فهي تعتمد علىٰ ما لا يلزم المُخاطَب التصديق به لاستحالة التأكد من صحته، فكيف ستعلم صحة حديث هذا المتخاذل؟ هل هو بالفعل مريض بمشاكل نفسية؟ هل هو بالفعل عنده أزمة تمنعه حقا عن الخروج والجهاد؟ هو يخاطبك بتأثر عن خشيته علىٰ ورعه واحتمال ضياع دينه إن خرج للقتال لضعف ذاتي فيه. وأنت لا يمكنك التأكد؛ فلن يكون أمامك غير ترك أمره لله يحكم فيه.

فالجدّ بن قيس هنا اعتمد علىٰ الإيهام بأنه سيُفتن إن خرج

للجهاد وبما أن الواجب علىٰ المسلم أن يمنع عن نفسه الفتنة؛ إذن لابد ألا يخرج للجهاد!

وهذه الحجة مستخدمة بصور وأشكال مختلفة، حيث يقوم المُتحجج باستخدام قضية شخصية وقد تزداد براعته فيؤلفها مع قضية كلية متفق عليها أو مسلم بها كمقدمة كبرىٰ ويستنتج منها أن عليه بالتالي ألا يُجاهد، وليست الإشكالية هنا فكل امرئ أدرىٰ بنفسه وبحاله؛ لكن لاحظ تمدد حجة الجد بن قيس عندما دعا غيره بحجة أخرىٰ أن يحذو حذوه في الامتناع عن الذهاب لمواطن الفتنة: الجهاد!

وقد رأينا مثلها ممن يقول إن الجهاد يدمر البلدان التي يحدث فيها، وبما أن واجبنا هو الحفاظ علىٰ بلاد المسلمين؛ إذن علينا ترك الانخراط في هذا التوجه والدعوة إليه! وأن القتال الداخلي يدمر البلدان التي يحدث فيها؛ وواجبنا الحفاظ علىٰ بلاد المسلمين من الدمار: إذن لن أشترك في قتال داخلي ببلاد المسلمين! فلو كان مثل هذا يعيش في عصر صلاح الدين الأيوبي حين كانت تكتيكات الحروب وقتها تستلزم تخريب بعض المدن المهددة باجتياح العدو أو علىٰ الأقل تخريب حصونها أو تهجير أهلها؛ لربما انخرط وقتها في الدعوة لانقلاب علىٰ القائد الكبير بزعم أنه يخرب بلاد المسلمين!

وألاعيب الحجج الشخصية كثيرة، تلعب أحيانا علىٰ ما هو

متعلق بالأعراض النفسية الداخلية -كحجة الجدِّ بن قيس، وأحيانا أخرىٰ تُقدَّم بصورة غير مباشرة، كأن يخبرك المتحجج بأنه يرىٰ الأمر خلاف رؤيتك له، فهو يراه قتالا داخليا مذموما وليس جهادا -كما ذُكرنا في الحجة السابقة؛ وبالتالي فلن تستطيع فرض رؤيتك للأمر عليه والمطلوب منك أن تعذره وتعذر نشره لرؤيته تلك والتخذيل عن جهاد الطواغيت وأعداء الملة لهذا السبب: أي رؤيته الذاتية المخالفة!

والخلاصة من هذا: أن الرؤية الذاتية المخالفة والعوارض النفسية الخفية ذات أثر هائل في محاججات التخذيل المعاصرة والقديمة؛ لكنها تُقدَّم غالبا في صورة عاطفية أو خطابية ولا ترتقي للحجة الماضية في القوة.

❀ ❀ ❀

أما الحجة الثالثة: حجة الظروف البيئية الصعبة؛ فهي تلعب علىٰ مشاعر المستمع التي تميل إلىٰ كراهية جمع القتال مع الظروف البيئية السيئة، وقد يحاول مستخدم تلك الحجة أن يرفعها مرتبتها بأن يؤكد علىٰ خطورة الخروج في ظروف جوية سيئة وأثر ذلك الكبير في الجيش وبالتالي يجب وقف الزحف!

وكغيرها من الحجج دائما هناك بعض الحق لكن المُنطلق باطل؛ فمستخدم هذه الحُجة قد يكون ناصحا للرسول أو لإمامه

وأميره، وقد يكون مُخذلا يريد التهرب متحججا بما يحاول تلفيقه بحيث تبدو حجته صحيحة متينة!

والفارق بين الأول والثاني كبير: الفارق بين من ينصح أميره ثم يلتزم بالقرار ولا يُعقِّب بل يجهز الناس للامتثال له، وبين من يوجه حديثه للجماهير محاولا صنع ضغط علىٰ أميره لإيقاف القتال أو التسامح مع المتهربين عن القتال!

وكالعادة لا تُستخدَم هذه الحجة دائما في إطار الظروف الجوية، بل عند تجريدها أكثر ستجد أن أصحابها قد قاموا باستغلال أول شيء ظاهر يؤثر في النفوس وينشر فيها الخذلان فكان الحر حينها! ولا شك أن وكان البرد لقالوا نفس الحجة لكن بوضع الصقيع مكان الحر الشديد! لا تنفروا في الحر كانت لتتحول إلىٰ لا تنفروا في البرد!

والاستخدامات المُعاصِرة لهذه الحجة تجدها واضحة عند من يحاول استخدام أقرب العراقيل المؤثرة في النفوس ليحاول عقلنتها ونشرها، وأعتقد أن المصاعب المعيشية التي تتهدد الخارج للجهاد هي أقوىٰ تلك النماذج؛ لذا فتنويعات تلك الحجة صالحة جدا للعمل في دول الرفاه والمعيشة المترفة للتخذيل عن الخروج إلىٰ الحياة الأصعب، وهي في أشد حالاتها قوة عند الذي يعيش في ثروة أو راحة نفسية ومادية بشكل عام! هو إذن نموذج أبي خيثمة! لكن مع الفارق في الإيمان!

أبو خيثمة الصحابي الذي كانت تلك الظروف الجوية الصعبة

بالخارج مقابل الراحة الموجودة في موضعه، هي نفسها التي ذكرته بسوء التخاذل عن النبي!

فيروىٰ أن أبا خيثمة أخا بني سالم رجع بعد مسير رسول الله ﷺ أياما إلىٰ أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حايط قد رشَّت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعاما . . فلما دخل قام علىٰ باب العريشين، فنظر إلىٰ امرأتيه وما صنعتا له، فقال:

- رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وماء بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم؟! ما هذا بالنصف!

ثم قال: لا والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتىٰ ألحق برسول الله ﷺ، فهيئا لي زادا ففعلتا، ثم قدم ناضحه فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتىٰ أدركه بتبوك حين نزلها![1].

وفي رواية أخرىٰ أكثر تفصيلا، روي أنه قد دخل حائطه والنخل مدللة بثمرها، والعريش مرشوش، وامرأته مختضبة متزينة، قال: فنظر أبو خيثمة إلىٰ امرأته فأعجبته، فقال:

- هلكت ورب الكعبة! لئن لم يدركني الله بتوبة أصبحت في ظلال النخل ورسول الله ﷺ في الحر والسموم في عنقه السيف، وقد

(١) دلائل النبوة للبيهقي: ٥/ ٢٢٢.

غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

ثم خرج يبتغي وجه الله والدار الآخرة، فاختطم أبو خيثمة ناضحه في المنخر، وتزود تمرات في ظبية وإداوة ماء فنادته امرأته وهو يرتحل: يا أبا خيثمة هلم أكلمك!

قال: والذي نفسي بيده لا ألتفت إلىٰ أهلي ولا مالي حتىٰ آتي رسول الله ﷺ ليستغفر لي[1].

إنها فتنة الدنيا الحلوة مقابل الظروف الصعبة، الأساس النفسي الرئيسي والخفي الذي يبني عليه المُخذِّل حجته تلك طبعا بعد وضع الأسس العقلانية لإخفاء الحقيقة! لكن الفارق بين من يستجيب له ومن لا يستجيب: هو إيمان المرء المستمع لحجة التخذيل تلك؛ فإن كان ضعيف الإيمان مالت نفسه إلىٰ تصديق تلك الحجة المُعقلَنة الزائفة، وإن كان إيمانه كإيمان الصحابي أبي خيثمة صارت تلك الحجة نفسها هي أكبر حافز له علىٰ الهجرة والجهاد وتحمل الأذىٰ والمكارِه في سبيل الله ورسوله.

❀ ❀ ❀

وإن التأمل العقلاني الحقيقي لتلك الحُجة يكشف مدىٰ زيفها ولعبها علىٰ ضعاف النفوس؛ فالمرء الذاهب للجهاد والقتال بماله

(١) دلائل النبوة للبيهقي: ٥/ ٢٢٦.

ونفسه إن كان صادقا -فما الذي يجعله يخشىٰ حر الطريق أو قسوته؟! ألست ذاهبا إلىٰ الموت في سبيل الله؟ فهل الموت أقل سوءا من درجة الحرارة!

وستجد أثر تغلغل تلك الحجة في النفوس حتىٰ في أوساط المجاهدين أنفسهم! فتجد بعضهم يخرج إلىٰ أرض الجهاد ثم يشعر بالملل من الحياة الصعبة ومرور الشهور عليه دون أن يلقىٰ الله شهيدا! فهو يفضل الموت السريع والجنة علىٰ استمرار تنكيله في الأعداء في ظروف معيشية صعبة، وبعضهم قد يشارك في عمليات استشهادية رافضا أن يستمر في التعلُّم والتطور لأنه -داخليّا- لا يتحمل تلك الحياة المتعسرة في أراضي الجهاد! هذا في وقت يحتاج المسلمون فيه إلىٰ تطوير خبرات كل فرد ومراكمتها لمواجهة النظام العالمي وذنبه الإقليمي!

❁ ❁ ❁

ختاما؛ فقد كانت هذه الحجج الثلاث هي أبرز ما وصلنا استخدامها في غزوة تبوك . . وبتجريدها وجدنا أنها ذات أصول ثابتة ما زلت تستخدم بكثرة وكفاءة حتىٰ الآن؛ وهي جميعا تتدثر بالعقلانية وتحاول الارتقاء من حقيقتها إلىٰ مراتب الحجج البرهانية؛ فتظهر الحكمة دائما في الجانب المُخذِّل والتهور في الجانب المُجاهِد!

وإن الأساس الأصلي لنجاح هذه المُحاججات يأتي من رُقي

مرتبة قائليها في قومهم؛ ودليله ما قاله جلاس بن سويد مغضبا لمن هاجم هؤلاء المُخذّلين والمرجفين في تبوك: «هؤلاء سادتنا وأشرافنا وأهل الفضل منا»!

هكذا كان رده علىٰ من يفضح المُخذلين! رده بأن هؤلاء هم السادة والأشراف! رده بأنهم حكماء قومهم وفقهائهم! فكم من جلاس بن سويد بيننا هذه الأيام: كلما رد أحدهم علىٰ مُخذِّل ومُرجِف بالمجاهدين صرخ غاضبا رافضا الاعتداء علىٰ من يعتبرهم أساتذته/أشياخه/علمائه بل حتىٰ صحبته؟! كم فرد منا يفعل فعلة جلاس هذه؟ وكم فرد منا كان مثل ابن الجد بن قيس الذي وقف أمام والده نفسه عندما وجد منه التخذيل وادعاء الحكمة فأغلظ له وقال: لا والله، ولكنه النفاق! والله، لينزلن علىٰ رسول الله ﷺ فيك قرآن يقرأونه. قال: فرفع (أي الجدّ) نعله فضرب بها وجهه، فانصرف ابنه ولم يكلمه![1]

هذا الصحابي الحكيم البدريّ المؤمن عبد الله بن الجد وقف أمام والده نفسه عندما وجد منه التخذيل وادعاء الحكمة في الترغيب عن الجهاد؛ بينما الجلاس -الذي تاب بعد هذا- كان كل ما اهتم به هو الذب عن أهل الباطل المُخذلين! فكم بينهما!

وإننا نشهد المرء الصالح الحازم الرأي، الصحيح العقل،

---

(١) مغازي الواقدي: ٣/ ٩٩٣.

السليم النفس، يصحب المتكبرين والمخذلين ويدفع ذاته دفعا في زمرتهم متخليّا عن صحبة غيرهم مصطفا في صفوفهم ضد خصومهم وإن وافقوه؛ بزعم أن تلك الزمرة أكثر تعبيرا عن نفسه وعلمه وذاته وإن خالفهم بفكره؛ حتىٰ ينقلب واحدا منهم ويصل للاستهزاء بالمبادئ وبأهل المبادئ التي آمن بها إلىٰ حد الغلو . . قبلا!

إن الإنسان بصحبته، ومن قويت نفسه جيئ من ضعف فكره، ومن ضعف فكره جيئ من ضعف نفسه!

وإن رسول الله لصادق، فلا نصحب إلا مؤمنا!

❁ ❁ ❁

أما عن الآيات النازلة في هذه الغزوة؛ فكما ذكرنا في المُقدِّمة، كانت سورة التوبة الجامعة وكانت هي فاضحة المنافقين الكبرىٰ.

وقد بدأت بتمهيد طويل ينبه لقبح صنيع المعوِّقين والمنافقين، ويقول الإمام الرازي بعد ذلك التمهيد: «ذكر في الآيات السابقة أسبابا كثيرة موجبة لقتالهم، وذكر منافع كثيرة تحصل من مقاتلتهم كقوله: يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم، وذكر أقوالهم المنكرة وأعمالهم القبيحة في الدين والدنيا -وعند هذا لا يبقىٰ للإنسان مانع من قتالهم إلا مجرد أن يخاف القتل ويحب الحياة فبين تعالىٰ أن هذا المانع خسيس لأن سعادة الدنيا بالنسبة إلىٰ سعادة الآخرة كالقطرة في البحر، وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل جهل وسفه».

لذا فبداية من الآية الثامنة والثلاثين نجد توبيخا شديدا للمؤمنين الذين رضوا بالحياة الدنيا، وتحذيرا لهم بالعذاب الأليم والاستبدال .. قال الإمام الرازي في شرح قوله سبحانه ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: «والمعنىٰ كأنه قيل قد ذكرنا الموجبات الكثيرة الداعية إلىٰ القتال، وقد شرحنا المنافع العظيمة التي تحصل عند القتال، وبيَّنا أنواع فضائحهم وقبائحهم التي تحمل العاقل علىٰ مقاتلتهم، فتركتم جميع هذه الأمور، أليس أن معبودكم يأمركم بمقاتلتهم وتعلمون أن طاعة المعبود توجب الثواب العظيم في الآخرة؟! فهل يليق بالعاقل ترك الثواب العظيم في الآخرة، لأجل المنفعة اليسيرة الحاصلة في الدنيا؟! والدليل علىٰ أن متاع الدنيا في الآخرة قليل، أن لذات الدنيا خسيسة في أنفسها ومشوبة بالآفات والبليات ومنقطعة عن قريب لا محالة، ومنافع الآخرة شريفة عالية خالصة عن كل الآفات، ودائمة أبدية سرمدية وذلك يوجب القطع بأن متاع الدنيا قليل حقير خسيس».

لذا فقد أمر رب العالمين بالخروج للجهاد ونبه أن هذا خير للمرء؛ لكن السذج لا يعلمون! يستمر الإمام: «ما يُستفاد بالجهاد من نعيم الآخرة خير مما يستفيده القاعد عنه من الراحة والدعة والتنعم بهما، ولذلك قال تعالىٰ: إن كنتم تعلمون -لأن ما يحصل من الخيرات في الآخرة علىٰ الجهاد لا يدرك إلا بالتأمل، ولا يعرفه إلا

المؤمن الذي عرف بالدليل أن القول بالقيامة حق، وأن القول بالثواب والعقاب حق وصدق».

ثم تبدأ آيات الكشف والفضح! يخبر الله نبيه بأكاذيب المُنافقين، زعماء المعوِّقين وكبراء ضعاف الإيمان والمغفلين من المسلمين، ويعرض حججهم للتخاذل عن الخروج ويؤكِّد له أنه لو كان عرضا من أعراض الدنيا لاتبعوك، قال الزمخشري في معنىٰ العرض: «ما عرض لك من منافع الدنيا . . . أىٰ لو كان ما دعوا إليه غنما قريبا سهل المنال! وهذا يؤكد أنهم أهل دنيا لا أهل جهاد . . يمكنهم الخروج وترك الأهل إن كان لمغنم مادي . . لكن في سبيل الله؟! يصعب هذا جدا عليهم!».

ثم يوضِّح الله هنا أن الذين استأذنوه في القعود في تلك الحادثة (تبوك) إنما هم المنافقون؛ أما المؤمنون فلم يستأذنوه. والدليل علىٰ ذلك أنهم لو كانوا أرادوا الخروج فعلا لأعدوا للخروج عدته حتىٰ يمنعهم العذر الطارئ؛ لكن هؤلاء أخذوا قرارا بالبقاء والجبن والاستكانة ثم تعللوا بأعذار وحجج تجعل قائد الجهاد يسمح لهم بالقعود!

ثم يوضِّح رب العالمين بالغيب الخفىٰ عن الناس؛ فيؤكِّد أن هؤلاء المُعوِّقين لو خرجوا في جيوش المسلمين لنشروا الفتن فيها باستمرار محاججات تخذيلهم ومسالك إرجافهم. لذا كان الفقهاء يكرهون خروجهم ويمنعون الإسهام لهم حتىٰ لو قاتلوا وجاهدوا -

فمجرد خروجهم فتنة شديدة تصنع في المسلمين أضعاف ما يمكن أن يصنعه قتالهم معهم للكفار! يقول الزمخشري: «خروجهم كان مفسدة، لقوله لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا -فكان إيقاع كراهة ذلك الخروج في نفوسهم حسنا ومصلحة». ويقول الرازي: «اعلم أن حاصل الكلام هو أنهم لو خرجوا فيهم ما زادوهم إلا خبالا، والخبال هو الإفساد الذي يوجب اختلاف الرأي وهو من أعظم الأمور التي يجب الاحتراز عنها في الحروب لأن عند حصول الاختلاف في الرأي يحصل الانهزام والانكسار علىٰ أسهل الوجوه. ثم بين تعالىٰ أنهم لا يقتصرون علىٰ ذلك بل يمشون بين الأكابر بالنميمة فيكون الإفساد أكثر، وهو المراد بقوله: ولأوضعوا خلالكم».

ثم يقول رب العالمين:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ويقول:

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا

﴿لَٱتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَـٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّـٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

* * *

ونلاحظ إخبار رب العالمين عن السمَّاعين لهؤلاء من المؤمنين، سماع عن غفلة أو سماع عن ضعف إيمان ويقين بالله. قال الزمخشري: «يبغونكم الفتنة يحاولون أن يفتنوكم. بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم ويفسدوا نياتكم في مغزاكم وفيكم سماعون لهم أيْ نمامون يسماعون حديثكم فينقلونه إليهم. أو فيكم قوم يسمعون للمنافقين ويطيعونهم».

وقال الإمام الرازي: «أما قوله وفيكم سماعون لهم ففيه قولان. الأول: المراد فيكم عيون لهم ينقلون إليهم ما يسمعون منكم، وهذا قول مجاهد وابن زيد. والثاني: قال قتادة فيكم من يسمع كلامهم

ويقبل قولهم، فإذا ألقوا إليهم أنواعا من الكلمات الموجبة لضعف القلب قبلوها وفتروا بسببها عن القيام بأمر الجهاد كما ينبغي.

فإن قيل: كيف يجوز ذلك علىٰ المؤمنين مع قوة دينهم ونيتهم في الجهاد؟

قلنا: لا يمتنع فيمن قرب عهده بالإسلام أن يؤثر قول المنافقين فيهم ولا يمتنع كون بعض الناس مجبولين علىٰ الجبن والفشل وضعف القلب، فيؤثر قولهم فيهم، ولا يمتنع أن يكون بعض المسلمين من أقارب رؤساء المنافقين فينظرون إليهم بعين الإجلال والتعظيم، فلهذا السبب يؤثر قول هؤلاء الأكابر من المنافقين فيهم.

ولا يمتنع أيضا أن يقال: المنافقون علىٰ قسمين: منهم من يقتصر علىٰ النفاق ولا يسعىٰ في الأرض بالفساد، ثم إن الفريق الثاني من المنافقين يحملونهم علىٰ السعي بالفساد بسبب إلقاء الشبهات والأراجيف إليهم».

❀ ❀ ❀

وعن حجة الجد بن قيس، التي جردناها فعمَّت علىٰ الحجج الشخصية غير الصادقة كلها، قال رب العالمين:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾

قال الإمام الرازي: «قال أهل المعاني وفيه تنبيه علىٰ أن من عصىٰ الله لغرض ما، فإنه تعالىٰ يبطل عليه ذلك الغرض، ألا ترىٰ أن القوم إنما اختاروا القعود لئلا يقعوا في الفتنة، فالله تعالىٰ بين أنهم في عين الفتنة واقعون ساقطون».

فانظر كيف أخبر ربنا عن هؤلاء المعوِّقين وسعادتهم الداخلية إن حدث فشل للنبي والمجاهدين. وانظر كيف يظهر ذلك في كثير من الذين يتابعون اليوم أي تجربة للجهاد في سبيل الله بأعين تفيض بالسخرية أو الاحتقار وانتظار أقرب هزيمة للمؤمنين للتشفي فيهم والتأكيد علىٰ أن منهاجهم ضال مضل! وقد رأينا والله! رأينا من يتصنع التبكاء علىٰ حال المسلمين في حلب والموصل وتكريت والفلوجة؛ ثم وسط التباكي يلعن ويسفه من أحلام وعقول المدافعين عن أهل السنة، ثم يطيل ويستفيض وتظهر ملامح الشماتة في كلامه رويدا رويدا وسطرا بعد سطر حتىٰ تتجلىٰ كشمس الظهيرة مستعلنة بالغرض الحقيقي من المقدمة الكربلائية الحزينة! ألا قبحهم الله! فضحهم الله وأخزاهم في الدنيا والآخرة.

وقد رد علىٰ أسلافهم رب العالمين:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾

فهذا هو رد المؤمنين المجاهدين: الإيمان بالقدر والتأكيد عليه قولا وعملا بالتوكل عليه فيما يبدو لهؤلاء المعوِّقين جنونا ورميا بالأنفس إلىٰ التهلكة؛ بل هي إحدىٰ الحسنيين: إما نصر أو شهادة. ولا هلاك إلا للمعوِّق الذي عمل ضد فريضة الجهاد. قال الإمام الرازي: «اعلم أن هذا هو الجواب الثاني عن فرح المنافقين بمصائب المؤمنين، وذلك لأن المسلم إذا ذهب إلىٰ الغزو، فإن صار مغلوبا مقتولا فاز بالاسم الحسن في الدنيا والثواب العظيم الذي أعده الله للشهداء في الآخرة، وإن صار غالبا فاز في الدنيا بالمال الحلال والاسم الجميل، وهي الرجولية والشوكة والقوة، وفي الآخرة، بالثواب العظيم. وأما المنافق إذا قعد في بيته فهو في الحال في بيته مذموما منسوبا إلىٰ الجُبن والفشل وضعف القلب والقناعة بالأمور الخسيسة من الدنيا علىٰ وجه يشاركه فيها النسوان والصبيان والعاجزون من النساء، ثم يكونون أبدا خائفين علىٰ أنفسهم وأولادهم وأموالهم، وفي الآخرة إن ماتوا فقد انتقلوا إلىٰ العذاب الدائم في القيامة، وإن أذن الله في قتلهم وقعوا في القتل والأسر والنهب، وانتقلوا من الدنيا إلىٰ عذاب النار، فالمنافق لا يتربص بالمؤمن إلا إحدىٰ الحالتين المذكورتين، وكل واحدة منهما في غاية الجلالة والرفعة والشرف، والمسلم يتربص بالمنافق إحدىٰ الحالتين المذكورتين، أعني البقاء في الدنيا مع الخزي والذل والهوان، ثم الانتقال إلىٰ عذاب القيامة والوقوع في القتل والنهب مع الخزي

والذل، وكل واحدة من هاتين الحالتين في غاية الخساسة والدناءة، ثم قال تعالىٰ للمنافقين: فتربصوا بنا إحدىٰ الحالتين الشريفتين إنا معكم متربصون وقوعكم في إحدىٰ الحالتين الخسيستين النازلتين».

❀ ❀ ❀

الفصل السادس

جماعُ المُحاجَّات والمسالك

أ: قائمة حجج التخذيل

١- (حجة عدم صحة الدين لفشل أنصاره الآني). أحد

٢- (إما اتباع منهج مخالف للسنة والهدي النبوي -أو هي الهزيمة). أُحُد. بئر معونة والرجيع

٣- (حُجَّة فساد منهج قادة الجهاد لموت مقاتليهم). أُحُد. بئر معونة والرجيع

٤- (حُجَّة وعد الغرور). الأحزاب

٥- (حجُة وجوب التماس رضا الكافرين بعدم استمرار معاندتهم). الأحزاب

٦- (حُجَّة وجوب التنازل عن الدين لظهور الكفر). الأحزاب

٧- (حُجَّة انجُ بنفسك). الأحزاب

٨- (حُجَّة العدو الميتافيزيقي). الأحزاب

٩- (حُجَّة التفوق الكيفي أو الكمّي) الأحزاب. خيبر. تبوك

١٠- (حُجَّة الضعف الشخصي). الأحزاب. تبوك

١١- (حُجَّة الظروف الطبيعية). تبوك

❀ ❀ ❀

ب: قائمة مسالك الإرجاف

١- (نشر الأخبار المخيفة عن مجيء جموع الكافرين لاستئصال المسلمين). أُحُد

٢- (تذكير المجاهدين الخارجين للقتال بأنهم سيُقتلون وستنقطع عنهم الحياة الجميلة). تبوك

٣- (نشر خبر مفزع أثناء المعركة يُعلَم يقينا أنه سيفتُّ في عضد المجاهدين وسيدمر معنوياتهم). أُحُد

٤- (نشر أخبار كثيرة (صادقة أو كاذبة) عن قوة جيش الكافرين وصلابته والمقارنة بينه وبين جيش المسلمين/الإرهاب بكثرة العدو والتخذيل عن ملاقاته بحجة عدم حكمة الخروج لجهادهم). بدر الموعِد. خيبر. تبوك

٥- (التخويف من قوة الجيش المعادي كما أو كيفا وتفوُّقه مقارنة بالجيوش الأخرىٰ بله جيش المسلمين). أحد. بدر الموعِد. الأحزاب. خيبر. تبوك

❀ ❀ ❀

فهذه قائمة كاملة بالحجج والمسالِك مُجرَّدة ليرجع إليها كل من

يقرأ مطولات المُعوِّقين ويجردها. وفي الغالب لن يجد طرائقهم وأصول ما يعرضونه خارج تلك المذكورة بالأعلىٰ!

وبذلك ينتهي القسم الأول، المُعوِّقون في مغازي النبي، ليبدأ القسم الثاني: أكاديمية المُعوِّقين.

❀ ❀ ❀

القسم الثاني

أكاديمية المُعوِّقين

في هذا القسم سنأخذ جولة بين أروقة أكاديمية المُعوِقين الكبرىٰ، مستغلين وجود عدة محاضرين متخصصين في (العمليات النفسية) للاستماع إليهم والتعليق علىٰ أفكارهم ورؤاهم. وفي نهاية الجولة سنعرض تطبيقا عمليا لهذه الحرب عاصرناه وهو يحدث في الواقع!

أول محاضرة ستكون للبروفيسور (الراحل!) ليوناردو دوب، أستاذ علم النفس بجامعة Yale، وهي عن أستاذ الإعلام الغربي المظلوم: جوبلز! ذاك الملعون دائما وأبدا من الغربيين بينما تكتيكاته واستراتيجياته الإعلامية قد تم تطويرها بصورة مذهلة بواسطة أكثر من يحاربون ذكره: الأمريكان!

فهلم إلىٰ المحاضرة سريعا كي نستمع ونكتب تعليقاتنا[١].

---

(١) For more details, see the famous paper: Goebbels' Principles of Propaganda, Leonard W. Doob (1950). The Public Opinion Quarterly.

بول جوزيف جوبلز هو أشهر وزير دعاية في التاريخ، والرجل المقرب من هتلر الذي تولىٰ عملية نشر الإيمان العميق بالنازية في الشعب الألماني. ستركز محاضرة ليوناردو عن نصائح لفهم كيف كان يدير جوبلز البروباجندا.

أولا: التوقيت التوقيت! يقول جوبلز: مهما كانت هوية الذي يتحدث أولا للعالم، فهو صادق![1].

إن الأنباء لابد أن تصل إلىٰ الجمهور أسرع من بروباجندا العدو. هل كنت تظن أنه يجب عليك دوما أن تخبئ الأنباء السيئة؟ نعم أتذكر ما شاهدناه من عدم إعلان النبي خبر خيانة بني قريظة في غزوة الأحزاب. هذا التكتيك صحيح؛ لكن في حال كان عندك القدرة علىٰ التحكم في مصادر التلقي عند الجمهور! أما في حال كان الإعلام مفتوحا وصار غلق مصادر التلقي شبه مستحيل، وفي حال كان الجمهور المستهدف أكبر من الجمهور الواقع تحت سلطتك؛ فمن الممكن أن تبادر أنت بإعلان الأخبار. إنك بهذا تتحكم في صياغتها بالصورة الملائمة وتضمن أن تأثير المفاجأة عند الجمهور سيكون تحت سيطرتك أكثر من تأثير مفاجأة العدو لجماهيرك بصياغته المرعبة. لقد تابعنا أهمية هذا التكتيك في الحرب الإسلامية الإسرائيلية التي اشتعلت في غزة عام ٢٠١٤: فقد قامت إسرائيل

---

(١) السابق: ٤٣٥.

بإخفاء كثرة القتلىٰ في صفوفها وعرقلة عملياتها علىٰ الأرض، فبادرت حركة حماس بإعلان الحقائق التي تجري مستخدمة الشبكات العنكبوتية. وصلت الأنباء مؤيدة بالمرئيات إلىٰ الجانب اليهودي فساد ذعر كبير وصل لدرجة أن قيل حينها صراحة: إننا نثق في إعلام حماس أكثر! هذا نموذج مناسب جدا للتمثيل به علىٰ أهمية المباردة: إن التوقيت الذي تعلن فيه الحقائق لا يجب أن يلتزم بالتأخر دوما؛ بل يجب عليك في بعض الأحيان والظروف والسياقات أن تبادر بإعلانها قبل عدوك أو أي مصدر آخر لا تضمن منه كيف سيصوغها.

كذلك عامل التوقيت له أهمية أخرىٰ: وهو تحديد متىٰ تبدأ حملة البروباجندا، إنها يجب أن تبدأ في اللحظة المناسبة تماما، بعدما تكون قد جرت تهيئة للجمهور/ والتمثيل الأفضل علىٰ ذلك سيكون بحملة البروباجندا التي قادتها أمريكا علىٰ تنظيم الدولة في الإعلام العالمي والعربي، لقد ظلت الأخبار تروح وتجيء عن أحداث وحشية يصنعها التنظيم والمساحات الشاسعة التي يتمدد فيها. لكن التنظيم ظل لا يواجه مجابهة أمريكية حقيقية في البداية. لقد كانت أمريكا تريد صناعة حالة (ما قبل البروباجندا) حيث تكون ذهنية الجماهير جاهزة لتلقي الإنزال الإعلامي المكثف في لحظة بدء الدعاية حين تجد فجأة أن هناك جهة تنشر في الإعلام صورة يتم فيها وصل النقاط المتناثرة بعضها ببعض! إن أغلب الاتهامات التي وجهت لتنظيم الدولة بأنه عميل لأمريكا جاءت في هذا العام الذي

سبق الحملة الدعائية: عام **٢٠١٤**. لقد كان أصحاب الاتهامات لا يفهمون لماذا لا تشن أمريكا حملتها العسكرية والإعلامية فورا، هم لا يفهمون حالة التمهيد وخلق مناخ الخوف والذعر الذي ستبدأ في استغلاله حملة البروباجندا! إن أجواء عام **٢٠١٤** كانت ضرورية وهامة لفهم ما جرىٰ في **٢٠١٥**.

ويتفرع علىٰ التوقيت الدعائي كذلك: أهمية تنظيم (تكرار) الألفاظ والأجواء. لابد ألا تستمر الأجهزة الإعلامية في تكرار المحتوىٰ بصورة تفقدها فعاليتها، هذا ضروري في أيامنا تلك أكثر من أيام جوبلز، خاصة مع شيوع روح السخرية عالميا من كل الثوابت، فكل خطاب ثابت متكرر مهدد بالتعرض للسخرية! فمثلا، جوبلز لم يكن يصرخ ليلا نهارا بالمؤامرة علىٰ العرق الآري؛ بل إنه بمجرد نجاح حملته الكبرىٰ بدأ يكرر الموضوع باعتباره حقيقة مسلمة علىٰ فترات متباعدة. لقد كان حريصا علىٰ ألا ينشر التهديدات المرعبة طوال الوقت لدرجة يصل معها للابتذال الذي يفقده فعاليته النفسية: بل ينشرها بنغمة لا تسبب الملل فتحفظ الرهبة في نفوس الناس. إن هذا يشبه الفارق بين رؤيتك لشخص يصرخ فيك مذعورا كل يوم أننا سنتلقىٰ قنبلة نووية فوق رؤوسنا، وبين شخص آخر يصرخ فيك ليومين متتاليين عن أمارات هذه الكارثة وخطورتها. ثم يصحبك ويضحك معك ويتغلغل إنسانيا بداخلك، ليأتي بعد خمسة أيام يحدثك في هدوء عن تخوفه هذا. أنت في الحالة الأولىٰ ستلجأ

لحيلة نفسية تهرب بها من الانهيار الذي لا توجد علامة علىٰ حدوثه ومن الابتذال الذي صار فيه هذا الشخص الزاعق. وفي الحالة الثانية ستنغمس بداخلك فكرة أن الضربة النووية حادث سيقع بلا ريب حيث أن هذا الصديق العاقل الصادق لا ينفك يفكر فيها ويشير إليها وينشر الأدلة كل فترة عليها! إن الابتذال بالتكرار الدعائي مما يجب تفاديه بأي ثمن -هكذا وجدنا البروباجندا الأمريكية بمجرد بدء الحرب الفعلية علىٰ تنظيم الدولة تهدئ حملاتها المسعورة وتعود لحياتها العادية مكتفية بتنويهات متباعدة عن خطورة التنظيم بعدما صار الرعب منه حقيقة متغلغلة في النفوس.

ثانيا: يجب علىٰ الجمل الشعارية (الإكليشيهات) المطلوب نشرها بين الجماهير أن تمتلك الصفات التالية: سهلة في تعلمها وترددها علىٰ أفواه الناس، ويتم استعمالها المرة تلو المرة في المواقف الملائمة فقط، وأن تكون قوية[١].

إن هذه الصفات لازمة، فاستخدام جمل شعارية معقدة تحتاج إلىٰ فكر طويل يضع حاجزا أمام شعبويتها، ولابد ألا يكون هناك أي حاجز من أي نوع. واستعمالها المرة تلو المرة يرسخها خاصة مع مراعاة ما سبق ذكره من الانتباه للفارق البسيط بين (التكرار المُعلِّم) و(الابتذال)! وطبعا لابد أن تكون قوية مع سهولتها.

---

(١) السابق: ٤٣٧.

كان جوبلز يهتم دائما بتوصيف العمليات ضد الجيش الألماني بالتخريب sabotage والاغتيال الغادر assassination. هذه عبارات قوية وبسيطة وسهلة وتكرارها دائما في توصيف الأحداث يرسخها. المثال الأكبر الذي نشاهده هذه الأيام هو استخدام كلمات مثل (عملية إرهابية) و(متطرفين) و(إرهابيين) في توصيف كل حركات الجهاد والمقاومة ضد المنظومة العالمية. كما نرىٰ استخدامات أخرىٰ لهذا التكتيك في القطاعات المدنية، فنجد اللوطي الحقير مستحق القتل يصبح (مثليا) ونجد الاعتداء علىٰ اليهود الإسرائيليين يصبح (اعتداء علىٰ المدنيين) وهلم جرا. في الوقت الحالي رأينا الاستخدامات الإعلامية العسكرية لهذه التكتيكات في تكرار إكليشيهات مثل (المذابح الجماعية التي تقوم بها داعش) ويقصدون بهذا الإكليشيه إعدام أسرىٰ جيش بشار السفاحين، أو (مذابح داعش للمدنيين الأبرياء) ويقصدون بها عمليات إعدام نفذها التنظيم في أماكن نفوذه تنفيذا لحكم شرعي في زناة أو لوطيين أو عملاء. إن كل هؤلاء يدخلون في تصنيف (المدني) الذي يقتله (الداعشي المتوحش). وقد رأينا الإحصاءات المنشورة من المنظمات الحقوقية المتغربة العميلة مثل المرصد السوري الحر وغيره تضع قتلىٰ التنظيم في عمليات تنفيذ أحكام شرعية في خانة (ضحايا التنظيم من المدنيين) للتأكيد أنه مشابه لروسيا التي لها (ضحايا من المدنيين) كذلك! هكذا فذاك الإكليشيه البسيط يتكرر دائما في توصيف

الأحداث حتىٰ يصبح حقيقة لا يمكن مناقشتها!

ثالثا: يجب عدم رفع الآمال الكاذبة والتي يمكن أن تتدمر بأحداث مستقبلية[1].

كان جوبلز يواجه بصرامة شديدة التفكير الحالم wishful thinking وكان يطلق الإنذارات الغاضبة الفورية ضد الأوهام الخاطئة false illusion كما أنه كان يمنع الاحتفالات الصاخبة بالانتصارات. إن شدة بأسه تتبدىٰ بوضوح في العام الأخير للرايخ: لقد كان يدمر أي تصور لدىٰ الألمان أنه من الممكن إنهاء الحرب لصالحهم بصورة سياسية؛ وهو الظن الذي كان بدأ ينتشر بين الجنود. الرجل كان يعلم أن الذي جرىٰ أكبر من أن تتم معالجته بصورة ودية سياسية تفاوضية، وأن الغرب الأنجلو ساكسوني والشرق الروسي لن يتوقفا قبل تنفيذ أكبر قدر ممكن من المجازر في الشعب الألماني انتقاما مما جرىٰ في أول الحرب. كما أنه كان يقلل فورا من شأن الانتصارات الجزئية في الأجواء العسكرية الكئيبة واقعيا. قد تتساءل مندهشا: أليس هذا غريبا! إن الجنود والجماهير تحتاج لدفعة معنوية! جوبلز بالتأكيد سيوافقك علىٰ هذا لكنه سيختلف معك في التنزيل والواقع يؤيده: إنه لم يكن يريد أن يستغرق الجميع في الاحتفال بانتصار ضئيل في جبهة معينة فرعية بينما الهزائم تنزل بباقي

(١) السابق: ٤٣٨.

الجبهات كلها، لم يكن يريد أن ينتشر التفاؤل في وقت لا يجب فيه أن ينتشر. في توقيتات معينة من المعارك يجب أن تكون مشاعر الجماهير والأجناد محايدة قدر الإمكان، لا تفاؤل ولا تشاؤم، إنما (خوض) للمعركة بكل جد. التفاؤل الذي تريده أن ينتشر معتمدا علىٰ انتصار في جبهة واحدة ضعيفة يعني سيادة التشاؤم والانهيار المفاجئ للمعنويات صباح الغد عندما تجيء أنباء السقطات والانهيارات! هذه لعبة نفسية دقيقة والأخرق فقط من يعتبر أن (نشر التفاؤل طوال الوقت) مطلوب دائما في وقت الحرب!

لمعرفة أهمية هذه الأفكار يمكنك استقراء مواقف الإخوان التي تلت الانقلاب: لقد كان (نشر التفكير الحالم) و(التفاؤل الدائم) هو ديدنهم طوال الوقت: العالم كله غاضب من الانقلاب، والاتحاد الأوروبي متفاجئ، وأمريكا مصدومة لأنها مع الديمقراطية، والمنقلبون خائفون مصابون بالذعر ويجهزون أنفسهم للهرب، السيسي مات، هذا شبيهه، الرؤىٰ تتواتر بأن الرئيس مرسي سيرجع هذا الشهر، بل الشهر القادم، بل هذا العام، بل سيرجع فقط!

إن الإخوان كانوا يحكون عن الجبهة المعادية كما يتمنون أن تكون لا كما هي في الحقيقة، كانوا يتمنون أن تكون متصدعة مذعورة متفككة ووحيدة ضد العالم، بينما هي في الحقيقة كانت كل شيء إلا هذا! وجرت علىٰ الإخوان المذابح وتصدعت الجماعة وانشقت

وتفرقت في البلاد شذر مذر ثم وجدنا بعض قادتهم ما زالوا يرددون – بعد كل هذا الشتات– نفس الكلمات والشعارات!

التفكير الحالم والتفاؤل الدائم عندما ينتشران في جبهة ضعيفة وتمر بموقف عصيب تأثيرهما في التخذيل والإرجاف الذاتي أنكىٰ ألف مرة من تخذيلات العدو وإرجافه!

❁ ❁ ❁

هنا تنتهي المحاضرة الأولىٰ، ونتحرك الآن لسماع المحاضرة الثانية التي سيلقيها قادة عسكريون أمريكيون في الدليل الميداني الصادر عن وزارة الدفاع الأمريكية لعام ٢٠٠٥ والخاص بالحرب النفسية. في الممر إلىٰ المحاضرة التالية نستمع لصوت هنه آرينت وهي تقول عبر المذياع:

أنتم تسألون كيف يمكن صناعة الإرهاب النفسي في الشعب وسريان الخذلان الاجتماعي عن مواجهة الظلم والتجبر، تفسير هذا لن يكون إلا بمشاهدة طوابير المعتقلين والذاهبين إلىٰ أقدارهم حتىٰ الإعدام، فلا أرهب من مسيرات هؤلاء الناس وهم يمضون إلىٰ الموت أشبه بمانكونات الأزياء. إذا رآهم امرؤ قال في سره: ما دام قد صار هؤلاء إلىٰ هذه الحالة المزرية فأي قدرة في يد أسيادهم؟! ثم يقفل إلىٰ بيته مملؤة نفسه مرارة –ها قد صار مروضا للتو![1].

---

(١) أسس التوتاليتارية بتصرف يسير: ٢٣٣.

يسألها المذيع: تحدثتي كذلك عدة مرات عن أهمية نشر فكرة (الانعزال) وصيرورة الإنسان وحيدا في مجتمعه للتخذيل ونشر الإرهاب الدولتي القاهر لروح الإنسان والمستسلم للطغيان.

ترد عليه قائلة: لطالما أشرنا إلىٰ أن الإرهاب النفسي لا يمكن أن يسود الناس مطلقا إلا في حال كونهم معزولين عن بعضهم البعض؛ بالتالي فأولىٰ اهتمامات كل الأنظمة الاستبدادية هي إحداث هذه العزلة. لذا يمكن أن تكون العزلة بدءا للإرهاب الدولتي: فهي الأرض الخصبة التي ينمو فيها ويكون ثمرتها الدائمة. وبهذا المعنىٰ تكون العزلة سابقة لإحلال الشمولية، وقد تكون منطبعة بطابع العجز، بمقدار ما تنشأ السلطة دوما من أناس يتحركون معا . . . لقد كانت العزلة والعجز: أي عدم القدرة الأساسية والمطلقة علىٰ أي فعل؛ هما خاصتي الأنظمة الاستبدادية علىٰ الدوام[1].

فلندون سريعا هذه الملحوظات، سبحان الله! اليهودية بنت اليهود تصف أغلب المشايخ بدقة! إنها تتحدث عن المعوِّقين حرفيا! فبحسب تفسيرها، أليس أصحاب مناهج الاعتزال والانشغال بالذات لا غير، هم عملاء للأنظمة الطاغية المستبدة -من حيث يدرون أو لا يدرون؟! ألا ينشرون مشاهد الرعب والحكايات التي تصنع حالة من الخوف والخضوع لسلطة العدو القاهرة المتألهة، مستغلين

(١) السابق: ٢٦٩.

ذلك في (ترويض الإنسان) -بتعبير هنه- ليصبح كائنا مطيعا مخذولا خاذلا منشغلا بنفسه؟ عندهم، أي فعل اجتماعي وسياسي يُشتمُّ منه رائحة الخطورة لابد من تجنبه، فالنفس تميل لاستخدام مغالطة المنحدر الزلق دائما: من يضمن لي إن اعترضت أو شاركت في الاعتراض ألا أصل لتلك اللحظة الشنيعة فأقف في طوابير الإعدام مستسلما مهانا؟! وقد رأينا المعوِّقين يستخدمون فعلا بصورة دائمة تلك المغالطة الشهيرة، حتىٰ يكاد المرء يخشىٰ قول كلمة الحق لنفسه!

لكن، هلم يا صديقي سريعا للحاق بالمحاضرة الثانية، فهي من الأهمية بمكان!

❀ ❀ ❀

أول من تحدث في المحاضرة العسكرية المجمعة كان الكولونيل أندي بيرد، وهو قائد عسكري شارك في العملية الحربية المسماة (دعم الديمقراطية!) في هاييتي، قال: إن العمليات النفسية أثبتت أنها لا غنىٰ عنها؛ فقد سمحت لنا بأن نطبق نوعا من النفوذ دون ضرورة ملحة لإطلاق الرصاص(١)!

لقد أوجز الكولونيل بهذه العبارة دور المُعوِّقين الرئيسي في الحروب الحديثة، خاصة مع العقيدة العسكرية الأمريكية التي تدور

---

(١) FM 3-05-30. Psychological operations, April 2005: 1-1.

من قديم حول مفهوم واحد: الردع!

إن دورهم هو تقليل التكلفة العسكرية والبشرية والمادية لجيوشهم الغازية، إلىٰ أدنىٰ الدرجات!

❀ ❀ ❀

بدأ أحد الجنرالات الحديث قائلا:

باستعراض سريع لمفهوم العمليات النفسية psychological operations من الدليل الميداني field manual للجيش الأميركي والذي صدر عام ٢٠٠٥ مزدحما بالتفصيلات العملية لصناعة حرب نفسية ناجحة، نجده في البداية يوضح أن القادة يقومون بتخطيط عمليات نفسية PSYOP لنقل معلومات ومؤشرات إلىٰ جماهير أجنبية كي تؤثر علىٰ مشاعرهم ودوافعهم وأهدافهم العقلانية، وأخيرا: سلوك الحكومات الأجنبية أو التنظيمات أو الجماعات أو الأفراد والهدف الرئيسي من كل تلك العمليات هو: التغيير السلوكي العملي عند الجمهور الأجنبي.

ويشرع الدليل العسكري الأميركي في شرح السبب لهذه العمليات فيؤكد أن الإدراك الأجنبي للقدرات العسكرية الأمريكية أمر أساسي للردع الإستراتيجي. فعالية الردع متعلقة بالقدرة الأمريكية علىٰ التأثير في إدراك الآخرين. وهدف الـ PSYOP هو تحفيز أو تعزيز السلوك الأجنبي لمصلحة الأهداف الوطنية للولايات المتحدة فلابد

من بناء صورة محددة مخيفة ومرهبة للأميركان عند العدو الأجنبي، وأثر ذلك سيكون عظيما في ساحة النزال، فهي تقلل من عزم العدو علىٰ القتال عن طريق خفض الروح المعنوية للخصم وتقليص فعاليته . . . وهي كذلك تثبط الأفعال العدوانية وتخلق انشقاقا وسخطا خلال طبقات الجند، مما يشجع علىٰ الاستسلام في النهاية![1].

وكيف يتم تحديد نجاح الحرب النفسية من فشلها؟

عن طريق مراقبة التطورات الملحوظة لسلوك الجمهور المستهدف.

وهذه العمليات النفسية ليست محصورة بوقت الحرب فقط عند الأميركيين، بل هي مستمرة في أوقات السلام مرورا بالصدام حتىٰ الحرب وخلال أزمنة عمليات ما بعد الصدام.

ثم يقوم التقرير بعد ذلك بعرض الوظائف الخمس لجنود الحرب النفسية، نرجو تأملها والتركيز فيها جيدا، وسأكرر عرضها في البحث المعروض في آخر القسم:

١) التأثير علىٰ الشعب الأجنبي عن طريق تقديم معلومات ذاتية للتأثير علىٰ مواقفه وسلوكه، والحصول علىٰ الطاعة وعدم التدخل . . . هذه الأفعال تسهل من العمليات العسكرية.

---

(١) السابق: ١-٢.

٢) تقديم النصائح للقادة العسكريين غير المرتبطين بعملية الحرب النفسية، فالعملية النفسية تسمح بوضع قيود علىٰ الأفعال والاستهدافات التي قد تقوم بها القوات المسلحة .. هذه الأفعال والقيود تقلل من تأثر الخصم بما لهذا التأثر من نتائج غير مقصودة، وتهاجم رغبته في المقاومة.

٣) تقديم معلومات عامة للشعب الأجنبي لدعم الأنشطة الإنسانية وإعادة أو تعزيز الشرعية وتخفيف المعاناة والحفاظ أو إعادة النظام المدني .. وهو ما يوفر دعما شعبيا ويضخم تأثيرات الإمكانات والأنشطة الأخرىٰ مثل (العمليات المدنية/ العسكرية CMO).

٤) يخدمون كصوت مُعزز للقائد العسكري وموجها للشعب الأجنبي لنقل النوايا (الطيبة!) وبناء مصداقية.

٥) مجابهة بروباجاندا العدو، والمعلومات الخاطئة والمضللة والمقاومة، لصنع صورة طيبة النوايا ذات أفعال صحيحة وإيجابية تجيء في صالح الشعب الأجنبي .. بذا يتم نزع قوة الآخرين علىٰ استقطاب الرأي العام والإرادة السياسية المعادية للولايات المتحدة وحلفائها[1].

هذه هي الوظائف الخمس الكبرىٰ للعمليات النفسية، وسنجد

---

(١) السابق: ١-٣.

مع المحاضرين التاليين: كارنز لورد وبادوك، تفصيلا وتوضيحا لهذه النقاط.

يبدأ الآن كارنز لورد Carnes Lord، أستاذ العلوم السياسية ومدرس القيادة الاستراتيجية في كلية الحرب البحرية الأمريكية، محاضرته التي ستكون في شكل نقاط مختصرة متتالية:[١]

- وفَّر ظهور جهاز المخابرات المركزية CIA عام **١٩٤٧** الآلة للقيام بعمليات نفسية منظمة أثناء زمن السلم في أعقاب الحرب العالمية الثانية[٢].

- قام الرئيس ترومان في عام **١٩٥٠** بإنشاء (مجلس الاستراتيجيات النفسية) بداخل البيت الأبيض، لتقديم أنشطة عالية المستوىٰ للمؤسسة الرئاسية في هذا المجال.

- ثم كان العام **١٩٥٢** علىٰ موعد مع إنشاء مركز الحرب النفسية في فورت براغ. كان هذا المركز انتقالا لمستوىٰ آخر من العمل المؤسسي العسكري لهذا المجال. في هذه الأثناء كان راديو أوروبا الحرة وراديو الحرية قد تم إنشاؤهم عن طريق الـ CIA لنقل

---

(١) for more details, see: Political warfare and Psychological operations. Carnes Lord Essay: The Psychological Dimension in national strategy.

(٢) السابق: ١٤.

دعايته المعادية للشيوعية إلىٰ مناطق سيطرة الاتحاد السوفيتي في شرق أوروبا، وكان تدخل جهاز المخابرات الأمريكي هو المسؤول عن إعادة المأسسة والقوىٰ الديمقراطية إلىٰ الحياة الثقافية الأوروبية.

- استخدمت الأجهزة المذكورة بعد ذلك بصورة نظامية في عمليات جواتيمالا وإيران وحرب فيتنام؛ لكن علينا ألا نتصور أن الأمر قد جرىٰ دون مشاكل: فقد كانت هناك مشاكل كبرىٰ في التنسيق بين الأجهزة المختلفة، فلابد علىٰ كل أجهزة الدولة أن تنسِّق مع بعضها البعض بصورة منضبطة جدا لتقديم استراتيجية موحَّدة تماما، هذه الحرب لابد أن تضم الحيل السياسية والتصرف الدبلوماسي والاستراتيجية الاقتصادية ووسائل الإقناع الثقافي والأيدولوجي.

الاستخدام المتضافر لهذه الوسائل كلها هو ما ينتج حربا نفسية سليمة[1] -والحقيقة أن هذا فيه الكثير من الصعوبة العملية[2]!

تعليقا علىٰ النقطة السابقة التي ذكرها كارنز، لابد أن أنبه علىٰ شيء خطير وغلط متكرر يقع فيه بعض المتابعين غير المتمرسين علىٰ الساحة الأمريكية الداخلية -والدول الديمقراطية عامة - ألا وهو أن أحد الجوانب الرئيسية لهذه الأزمة الداخلية -أزمة إدارة حرب نفسية وسياسية شاملة- هي استحالة التحكم عمليا في كافة مؤسسات الدولة

---

(١) السابق: ٦.

(٢) السابق: ١٥.

المنتخبة والإعلامية؛ فمثلا قد يمكن التحكم في أعضاء الحزبين إلىٰ حد كبير؛ لكن كيف يمكن التحكم في الآراء المتطرفة أو السطحية التي يتلفظ بها بعض من لا ينتمي بصورة متجذرة للنظام؟ كيف يمكن إدارة التحكم الإعلامي بكفاءة بالغة لدرجة أن عشرات القنوات تظل طوال مدة الحرب السياسية لا تخرج رأيا شاذًا علىٰ الإطلاق؟ إن كل ما يقوله أعضاء الكونجرس أو رجال الدولة الأمريكيين أو الغربيين يتم اعتباره من المتابع الخارجي، جزءا من سياسات الولايات المتحدة الأمريكية[1]! إن خطورة هذا تتبدىٰ في أن يتلقىٰ المستمع الخارجي هذه الأحاديث والخطابات باعتبارها التوجه الأمريكي الحقيقي القادم والذي تقوم مؤسسات البنية السياسية الأمريكية بمداراته، فيقوم بإنشاء صرح هائل من التحليلات والتنبؤات الخاطئة اعتمادا علىٰ هذه (الثغرات) التي يعترف الخبراء أنفسهم بوجودها في البنية الديمقراطية أثناء الاستخدام الخداعي للحروب النفسية. إن تصريحات سيناتور أمريكي أو رجل من رجال الكونجرس المتطرفين أو الأحزاب الأوروبية اليمينية قد تخدم بشدة في تبيان الجانب العقدي المخفي من الصراع، مما يدفع المتابعين لترجمتها ونشرها والسعادة بها؛ لكنها في نفس الوقت قد تكون مضللة بشكل كبير حين تبني تحليلاتك وسياساتك فوقها ثم يثبت بعد ذلك أنها شاذة عن

---

(١) السابق: ٦.

الأجواء السائدة في واشنطن أو أوروبا. يمكنك مثلا البناء فوق كلام عضو من الكونجرس يدعو لعمليات كبرىٰ في العراق وأن أمريكا لابد أن تصنع كذا وكذا. يعضده كلام جزء من الإعلام المرئي والمقروء -لينتهي بك الحال متوقعا أن استراتيجية أمريكا القادمة ستكون مجموعة إنزالات برية ضخمة في المنطقة للمرة الثانية! هنا تكون قد وقعت في الفخ الرهيب الذي بقدر معاناة الأمريكيين مؤسسيا منه بقدر ما قد يساعدهم في حالات مثل تلك! إن الحماقة كلها تتبدىٰ في شيئين: تصديق الحملات والمقولات والعبارات الدبلوماسية الرسمية الغربية، أو البناء علىٰ المقولات الشاذة الخارجة عن النمط السياسي الحقيقي والعام! هذان طرفا الحماقة السياسية!

ولقد آمن البعض يوما بأن أمريكا تريدهم وحدهم في حكم مصر وأنها لن تتحمل أن تنتقل إلىٰ مربع عمليات جهادي، وكانت الاستشهادات في كل الأحوال علىٰ هذا الاطمئنان الواثق تدور حول مقولات (أفراد) في المؤسسات الأوروبية والأمريكية! قيل أمامي يوما هذا الكلام فكان فيه من الحماقة أكثر مما تتحمله أعصابي؛ رددت حين جاءتني الفرصة للكلام مستهزئا! إن هذا التصور لدىٰ الإخوان وغيرهم بأن أوروبا وأمريكا سيحافظون عليهم بأي ثمن كنموذج ديمقراطي معتدل خشية من انتشار النماذج الجهادية في مصر جاءهم بصورة مباشرة من مصدرين، الأول كان التقرير الأشهر لراند عن بناء شبكات اعتدال إسلامي لمواجهة الفكر الإرهابي، والذي تم

أخذه كأنه ثابت استراتيجي لن يتغير أبدا في السياسة الأمريكية. والثاني كان الأقوال المباشرة لأفراد من نخبة المسؤولين الغربيين كما ذكرت قبلا .. هكذا كانت النهاية حتميَّة: لقد تم بناء كافة استراتيجيات وخطط العمل علىٰ هذه الأسس؛ فجاءت المفاجأة الانقلابية كاملة!

إن بناء الاستراتيجية علىٰ أسس لا تفهم منظومة الآخر وتناقضاتها السياسية الداخلية، هي مخاطرة كبيرة، وثمنها كبير!

نعود الآن لمحاضرة كارنز، يقول الرجل:

- تتبدىٰ إحدىٰ الإشكاليات الأخرىٰ في تسمية (الحرب النفسية) نفسها، فهي تارة يطلق عليها الحرب السياسية أو الحرب الأيدولوجية أو حرب الأفكار أوالعمليات النفسية أو غير ذلك. إن هذا التبادل في التسمية سببه الأول هو التداخل العملي بين كل هذه المفاهيم! الحرب النفسية هي حرب أفكار وحرب أيدولوجية وحرب سياسية! هي كل هذا معا(1)!

إذن الحرب النفسية لا تعتمد فقط علىٰ صدمات أو عمليات قصيرة المدىٰ ودون لعب أيدولوجي وعقدي؛ إنها تعبث في الرموز الثقافية والسياسية وتعبث في التصورات والمشاعر، والأهم، تعبث

---

(1) السابق: ١٦.

في (سلوكيات Behavior) الأفراد والجماعات تحت الضغط[1].

وتعقيبا أقول أن الهدف العملي النهائي من كل هذه العملية الكبرىٰ: هو تعديل سلوك الجمهور المستهدف، سواء عدو أو حليف! فإن كان عدوانيا مستهترا يتم شن حرب نفسية عليه لجعله أكثر تشكيكا في قدراته وأكثر ذعرا من عدوه!

أذكر أنه في الحرب العالمية الثانية اهتم جوبلز بمسألة تسمية الأحداث والمواقف بأسماء مشحونة بذاتها؛ فحينما كان يريد دفع الشعب الإنجليزي للثورة علىٰ حكومته أطلق علىٰ الحالة التي يعيشها الإنجليز الأزمة الزاحفة Creeping crisis . . إن هذه التسمية المشحونة توحي للشعب الإنجليزي أن مآلات حكومته كارثية ومستقبله مخيف إن اختار دعمها؛ فلابد بالتالي أن يحتشد ضدها . . ليس بالضرورة مع ألمانيا . . المهم فقط أن يحتشد ضدها كي تتصدع الجبهة الداخلية للإنجليز.

لماذا يصنع جوبلز ذلك؟ لأنه كان يؤمن أن الصياغة اللفظية هي الوسيط الواقع بين الأحداث والشعب؛ بالتالي فإن رد الفعل والسلوك الشعبي تجاه الحدث يمكن أن يتأثر إيجابا وسلبا بمجرد صياغة البروباجندا له بصورة سيئة أو جيدة! لهذا كان يهتم باللغة المستخدمة والصياغة اللفظية جدا، إن الحرب الدعائية والنفسية قائمة علىٰ

---

(١) السابق: ١٧.

مهارات استخدام الألفاظ، إنه سحر البيان الذي يعدِّل في سلوك الجمهور المستهدف.

ومفهوم الحرب النفسية الأمريكي المعاصر أوسع من مجرد التأثير في البنية الداخلية لحشد الرأي العام دعما فقط لقضية أو دفعا لاتجاه، وسيظهر هذا بقوة إن عرفنا مدلول مصطلح (العلميات المدنية-العسكرية CMO) عند الجيش الأميركي والمتداخل مع مصطلحات العمليات النفسية؛ إنه يتجاوز ذلك إلىٰ تعاون أمني مع حكومات وجماعات وتنظيمات عاملة في الدولة الخصم، ضد المقاومة الرافضة لأمريكا، أو بلفظ التقرير الشارح للمصطلح الصادر عن الجيش الأميركي عام ٢٠٠٨: العمليات المدنية العسكرية CMO علىٰ المستوىٰ التكتيكي تشمل دعم أصحاب المصالح علىٰ المستوىٰ المحلي، وتعزيز شرعية وفعالية الوجود الأميركي وعملياته بين المدنيين ويمكن أن تشمل العمليات الأمنية كذلك[١].

وربما تكون حركة أبناء العراق/الصحوات هي النموذج الأبرز لهذه العمليات: حيث تعاون شيوخ قبائل سنية مع الأمريكيين في الحركة التي قال الجنرال بترايوس القائد الأعلىٰ لجيش الولايات المتحدة في العراق وقتها للمشرعين في واشنطن بأنها قللت من

---

(١) Civil-Military Operations, Joint Publication (JP) 3-57, July 08, 2008, p. ix.

الإصابات الأميركية وزادت الأمن وأنقذت حتىٰ أموال دافعي الضرائب الأمريكان![1]

هذه هي قيمة هؤلاء الخراف العاملين مع الأمريكيين! ليس أكثر من توفير بعض الدولارات في جيوب المواطن الأمريكي!

إن كارنز يفسر هذه الاستراتيجية في الذهاب بالحرب النفسية إلىٰ درجة تجنيد شعب أو حتىٰ حزب أو جماعة أو حكومة ضد المقاومة، تجنيدا استخباراتيا وعملياتيا؛ قائلا: في عالم اليوم لا تستطيع أمريكا أن تذهب لأكثر مناطق السور صلادة وقوة لتضرب! لا يمكننا (الأمريكان) تحمل حجم الإصابات ولا يمكن لمواردنا تحمل النفقات ولا يمكننا تحمل عواقب ذلك من فقدان الثقة في الحكومة التي ستتسبب في كل هذا![2]

إن خوض حرب مباشرة عنيفة دون عمليات نفسية علىٰ الجمهور العدو لتحييد أكبر قدر منه بإخفاء الأغراض الأيدولوجية والدينية والاقتصادية للحرب ورفع شعارات إنسانوية تحريرية، ودون تخذيل وإرجاف أكبر قدر ممكن من الطاقة البشرية المحتمل عسكرتها، هو ضرب للرأس في أمتن مواضع السور! يكمل كارنز مفرقا بين نوعين

(١) Greg Bruno: The Role of the 'Sons of Iraq' in Improving Security. April 2008. The Washington post.

(٢) Political warfare and Psychological operations: 14.

من الحروب النفسية في بعض الأحيان يكون هناك تفرقة واضحة بين العلميات النفسية الحربية الميدانية وعمليات التعزيز النفسية: الثانية تكون مهمتها تأمين جلب ولاء المدنيين وتعاونهم مع الأمريكان في أرض المعركة[١].

كما ترىٰ فإن جمهور المدنيين موضع عمل كبير في الحرب النفسية الأمريكية.

كذلك فالاتصالات الدولية هي صنف آخر من العمليات النفسية بشكل أو بآخر لكن بصورة أكثر تراخيا. يستحسن النظر إليها علىٰ أن مهمتها توجيه المعلومات الدولية والتعليم والثقافة الدوليين![٢]

فالتعامل مع الإعلام الأمريكي والعالمي باعتباره مستقلا عن الحرب النفسية الأمريكية أو العالمية هو حماقة لا تغتفر! الإعلام الدولي نعم يملك الاستقلالية خاصة في الدول الديمقراطية، لكنها استقلالية ذات سقف، وهذه الاستقلالية عن المؤسسة السياسية والعسكرية الأمريكية لا تعني أنه لا يلتقي معها في المصلحة التي تقضي بالتخلص من الجهاديين والعاملين لمصلحة الإسلام، ذلك الالتقاء هو السبب الرئيسي في مشاركته الفعالة المتحمسة للعمل في الخطط النفسية العسكرية، لا الإملاءات المباشرة. طبعا مع مراعاة

(١) السابق: ١٩.

(٢) السابق: ١٩.

ما ذكرناه منذ قليل: الشذوذ الخطابي لبعض الجهات والأفراد.

- ينتقل كارنز إلىٰ جهة أخرىٰ تعمل في إطار الخطة الشاملة للعمليات النفسية، وهي المؤسسات الإغاثية والدولية!

يقول: إن المساعدات والشؤون الإنسانية الدولية مما لا يجب أن يتم إغفال ذكرها. هذا التصنيف يشمل المساعدات الأجنبية الاقتصادية والتنموية، والمساعدات الغذائية، والإنسانية المتخصصة مثل عمليات الإنقاذ وتخفيف الكوارث والمجاعات وما يشبهها. هناك مؤسسات عديدة متغلغة في هذا المجال من الأنشطة، مثل وزارة الدفاع الأمريكية وغيرها حيث يتم ربط عملها بهذه المنطقة المستهدفة من قبل الأنشطة الخيرية والإنسانية. بالرغم من أن هذه الأنشطة تكون بطبيعتها البيروقراطية مشتتة ومعتمدة علىٰ التصرفات الذاتية بصورة كبيرة؛ إلا أنهم جميعا يملكون دورا سياسيا مهما من جهة العمل النفسي. سواء عن وعي وقصد أم لا، فإن هذه المؤسسات الخيرية تخدم كأداة هامة جدا لسياسة الولايات المتحدة واستراتيجيتها الوطنية![1].

سيبرز علىٰ الفور إلىٰ الذهن نماذج (الغربيين) العاملين في مجالات نقل الإغاثة إلىٰ سوريا والذين تم قتلهم من قبل تنظيم الدولة في فيديوهاته الشهيرة، لقد فوجئ الجميع -إلا الجهة المرسلة!- أن

(١) السابق: ٢٠.

منهم الطيار العسكري البريطاني ومنهم الإسرائيلي الأصل الأمريكي الجنسية -كان يتم تقديمه بصفته أمريكيا فقط بالطبع! إن الجهات الإغاثية والإنسانية لعبت دورا كبيرا في العمليات النفسية بالداخل السوري، ولا أقصد هنا الجهات الغربية الصريحة فقط: بل رأينا كيف لعبت السعودية وتركيا وقطر أدوارا كبيرة في زرع الخلافات والنزاعات بين المقاتلين والمجاهدين والسيطرة رويدا رويدا عليهم من أجل توجيههم نحو المخطط المرسوم من إفشال للجهاد وتفكيكه.

الجهات الإغاثية والإنسانية تمثل مشكلة كبيرة بالنسبة للحركات الجهادية خاصة بعدما طورت استراتيجيتها لتصبح السيطرة علىٰ المدن والتمركز بها بدلا من خوض الحروب في الصحراء والغابات: فقطع الإمدادات الغذائية والدوائية التي تقدمها تلك الجهات مع العجز الكامل عن تقديم أي تعويض للكتل السكانية الواقعة تحت القصف المستمر وانتشار القتلىٰ والجروح علىٰ نطاق ضخم، شيء لا يمكن أن يتحمله أحد! وهذا القطع لتلك الإمدادات لن يعوضه تهريب الأدوية لأنها لن تكفي أبدا في ظل الحصار الذي تصنعه الجيوش علىٰ المدن الواقعة في أيدي الجهاديين والمقاتلين وفي ظل كثافة النيران المستخدمة في الإبادة الجوية والمدفعية والصاروخية.

كما أن هذا القطع لن يتفهمه السكان لصعوبة إدراك خطورته. وقد رأينا كيف استهدف الجيش الروسي في سوريا كافة المستشفيات ومخازن الدواء حتىٰ لو كانت محصنة تحت الأرض. إن قتل الطبيب

له أولوية في هذه الاستراتيجية عن قتل المجاهد. دك المستشفيات ومخازن الطعام أهم من دك المعسكرات ومراكز التجمع التي يندر أن تكون ممتلئة. فكيف يمكن بعد ذلك أن ترفض أي يد ممدودة بالدواء والطعام؟!

هذه هي المعضلة الكبيرة، والتي زادت وكبرت جدا مع التغير الاستراتيجي الذي جرىٰ في العقلية الجهادية من أسلوب حرب عصابات بلا مركز ولا عنوان وبلا سعي إلىٰ التحكم بالمدن، إلىٰ أسلوب السيطرة علىٰ المدن والتمركز فيها وإدارتها. إن الإدارة هنا ستصبح مستحيلة بلا مساعدة إنسانية وإغاثية خارجية، والمساعدة الإنسانية والإغاثية الغربية لا يتم تقديمها إلا لفصائل معينة مرتبطة بالغرب، فلا يستطيع الجميع أن يتخذوا من هذا الفصيل موقفا مهما كانوا يعلمون عمالته وحقارته؛ لأنه (الواسطة) التي تبقي السكان علىٰ قيد الحياة. كما أن السعودية أو تركيا أو قطر أو الكويت يظهرون كوسيط (إسلامي متعاطف) مناسب يمكن قبول المساعدات منه والتغاضي عن عمالتهم للغرب!

ومن هذا المنفذ يتسلل الجرذان لهدم البنية الداخلية وقلب الجميع علىٰ بعضهم البعض، وقد جرىٰ ويجري وسيجري!

- نرجع الآن إلىٰ كارنز، الذي يقول ملاحظة هامة قبل الانتقال إلىٰ موضوع آخر هام:

إن فن التفاوض يقوم علىٰ فهم النفسية الفردية والجماعية

وحساسيتهم للسياق الثقافي. علىٰ نحو مشابه فإن ممارسة القيادة العسكرية علىٰ كافة المستويات يشمل تقييم لمناطق القوة النفسية للعدو وقواته العسكرية ومناطق الهشاشة كذلك. الخداع والمفاجأة هي مفاتيح رئيسية في فن الحرب[1].

هذا جانب ضروري لفهم دور السفراء والقناصل والبعثات الثقافية الغربية في المشرق: إن استيعاب (السياق الثقافي) للجمهور المستهدف وطباعه العامة التي اكتسبها بالأعراف والدين والأحداث التاريخية الكبرىٰ، وأي الكلمات تخيفه وأيها تثير سخريته: شيء لا غنىٰ عنه لشن عملية نفسية. وعلىٰ أي حال فهذه الفكرة تحدث عنها المفكرون الإسلاميون كثيرا طوال القرن الماضي أثناء فضحهم الاستشراق وخطورته. وفي نفس السياق، يقول بادوك الذي سنذهب لمحاضرته بعد قليل: إن قلب الخبرة في كل منطقة جغرافية هو معرفة الثقافة الأجنبية الخاصة بها. وقوة الموظفين والعسكريين والعملاء الذين ينسقون مع أجهزة التخطيط النفسي تكمن في مدىٰ خبرتهم بثقافة الشعب المستهدف[2].

ولا يحتاج الكلام إلىٰ مزيد توضيح!

الآن ننتقل إلىٰ موضوع ضروري، سنترك كارنز يتحدث عنه

---

(١) السابق: ٢٢.

(٢) السابق: ٥٧.

مباشرة بلا مقاطعة، ألا وهو النقل الإعلامي غير المسؤول للحالة العسكرية في الجبهات التي يخوض فيها الأمريكيون الحروب، يقول كارنز:

- توقفت الصحافة (الأمريكية) منذ الحرب العالمية الثانية عن نشر صور الجثث الأمريكية العائدة للوطن من أجل الحفاظ علىٰ الروح المعنوية لكل من الجنود والشعب الأمريكي[١].

- ثبت أن النقل المرئي الدائم لمشاهد الدمار والموت قادر علىٰ أن يدمر أي سياق واضح عند المشاهد، إن هذا النقل يتسبب حتما في تشجيع مشاعر داخلية عند المشاهد أن كل هذه الحرب عقيمة ولا أخلاقية . . سخيفة تماما![٢].

- اللقاءات التلفزية التي أجريت مع الجنود الأمريكان في أثناء الحرب اللبنانية عام ١٩٨٣ لكي يقوموا بحكاية آرائهم وإبداء مشاعرهم حيال الموقف الذين هم فيه كانت ضارة للغاية؛ فلقد قامت بصناعة صورة للجنود في هيئة المشوشين والمبلبلين والسذج وأنهم يشعرون بمرارة حول ما هو سبب خوضهم لهذه الحرب من الأساس وما فائدتها![٣].

---

(١) السابق: ٢٣.

(٢) السابق: ٢٥.

(٣) السابق: ٢٥.

- إن الأثر المعنوي المدمر لمثل هذه اللقاءات علىٰ الجبهة الداخلية وعلىٰ الحلفاء وعلىٰ تصور الجبهة المعادية للجندي الأمريكي والعسكرية الأمريكية كبير وذو ثمن فادح![1].

- إن كل هذه المشاكل تدفع لاتخاذ مواقف جادة تتجه نحو تحجيم أو حتىٰ إلغاء الوجود التلفزي الأعلامي من الأصل في الساحات القتالية المستقبلية، سواء تعاون الإعلام أم لم يتعاون. لابد من إلغاء وجوده (الكلام في نهاية الثمانينات)[2].

هذه كلها مخاطر النقل الدائم لمشاهد وأحداث الحروب إلىٰ الجبهة الداخلية: إنها تثير مشاعر القلق والذعر والتساؤلات المنطقية عن الجدوىٰ الإنسانية لكل هذه الإبادة التي تقوم بها أمريكا باسم نشر الديمقراطية!

لقد حسم الأمريكيون مسألة نقل ما يحدث في الخارج إلىٰ الجبهة الشعبية الداخلية منذ زمن طويل: هذا ممنوع! وكم يبدو المساكين المتلبرلين والإنسانويين حمقىٰ وأغبياء حين يتحدثون عن أهمية (تعريف الشعوب الغربية بما تحدثه بلادهم)! فلأسلمن لك أنه يمكنك أن تقوم بتعريف أفراد أو مجموعات صغيرة، لكن عليك التسليم كذلك بأن الإطار العام لصناعة الوعي يعمل ضدك طوال

---

(١) السابق: ٢٥.

(٢) السابق: ٢٥.

الوقت! هذه مسألة أمن قومي وسياسة استراتيجية لا يمكن أن يتم التساهل فيها! لن تصل أبدا لصناعة كتلة حرجة في الشعوب الغربية تعلم ما يجري من مذابح إلا بموافقة الإدارات الغربية علىٰ تعطيل تلك الاستراتيجية مؤقتا، سواء بصورة مباشرة لتحقيق هدف تكتيكي آخر/أو غير مباشرة نتاجا لضغط مؤسسي بسبب الصراعات السياسية البينية. بغير ذلك ستظل مجهوداتك حرثًا في بحر! بل وحتىٰ إن تم التعطيل التكتيكي لوقت محدد فلن يكون مجهودك إلا في إطار توظيفك السياسي لهدف غربي إلىٰ حين!

أخيرا، ينهي كارنز محاضرته بموضوع (الردع) و(الصورة العسكرية المخيفة) والصلة بينهما، يقول:

- إن الثقافة الأمريكية العسكرية العامة هي أن أمريكا لا تسعىٰ للحرب ولكنها تسعىٰ (لردع) الحروب ومنع حدوثها. لكن في النهاية؛ يبقىٰ الردع بلا شك (ظاهرة نفسية). إنه ليس مجرد انعكاس لحجم القوات العسكرية وكفاءتها.

وهناك أسباب كثيرة لافتراض أن التصور الأجنبي عن قوة الولايات المتحدة لابد من تشكيله بعدة طرق لتعزيز قوة عامل الردع[1].

الردع! الردع دائما وأبدا! هذا هو مركز العقيدة العسكرية

---

(١) السابق: ٢٩.

الأمريكية، بدون استيعاب هذه الحقيقة لن تفهم سبب تخصيصهم القنوات والوثائقيات لعرض أسلحتهم وإمكاناتها .. لقد انتهج السوفيت منهج الستار الحديدي والإرهاب من المجهول. الأمريكان علىٰ العكس تماما: يفصحون عن أشرس ما يمتلكونه وينشرون ثقافة الخوف منهم طوال الوقت. إن التصور الأجنبي عن القوة الأمريكية لابد أن يصيب الشعوب بالرهبة والذعر والعجز دائما. يقول بادوك عن تكتيك عملياتي نفسي اسمه بروباجندا الفِعالpropaganda of the deed: هو نوع من العمليات النفسية أكثر رقيا ويتكون من مجموعة من الأنشطة لا تستخدم عادة الإعلام المقروء أو المرئي والمسموع لنشر الرسالة الدعائية: بل تكون مجرد تصرفات مخطط لها بحيث تكون ذات تأثير نفسي. منها مثلا عرض التدريبات والأنشطة العسكرية الأمريكية للعالم كله، أو نشر قوات عسكرية في مكان محدد، أو التواصل مع القوميات الأجنبية بزيارات وأعمال مدنية[(١)].

إن مجرد نشر الأفلام التسجيلية عن الأسلحة أو التدريبات العسكرية أو حتىٰ تبادل الزيارات الودي ظاهرا، يدخل عند هؤلاء في إطار العمليات النفسية للتأثير علىٰ الخصم وتخذيله وإرجافه أو، بالمصطلح الرسمي الأمريكي: ردعه! وفي الكلام إشارة عن التواصل مع المؤسسات الأجنبية الذي يحدث طوال الوقت بلا توقف، وعن

(١) السابق: ٥٢.

الجماعات والتنظيمات والحركات التي تقابل الأمريكان وتتلقىٰ منها في طيات الكلام الرسائل الخفية لتأتي إلىٰ الأمة فتنشرها، جاهلة بأنها ليست أكثر من مطي للحرب النفسية الأمريكية!

لكل هذا لا أنكر إعجابي بلا مبالاة كثير من الحركات الجهادية -التي قد تتطرف لحد البله أحيانا!- بالغطرسة والقوة الأمريكية! إن تلك اللامبالاة تضرب مفهوم الردع وتقوضه تماما!

كيف تنجح العمليات النفسية في إرهاب وتخذيل شخص يرىٰ في قوتك العاتية وسيلة مضمونة للذهاب سريعا إلىٰ الجنة؟! إنه يفضل القنبلة الذكية التي تضمن قتله في لحظة واحدة عن القنابل البدائية الخرقاء التي قد لا تقتله!

إذن الردع الأمريكي بتصوير أقوىٰ الأسلحة ومدىٰ دقتها الهائلة في الفتك السريع الدقيق يعمل في نفوس المجاهدين المسلمين عملا عكسيا! إنه ينشر فيهم مشاعر نقيضة للمطلوب! من المعروف أن دول العالم الثالث الضعيفة ترهبها هذه المبالغة في تصوير القوة والقدرة الأمريكية وتنجح في (ردعها) عن أي تفكير في معارضة جادة؛ لكن ماذا عن هؤلاء الجهاديين الحمقىٰ؟!

يقول كارنز: **إن مسألة التلاعب بالصورة الأمريكية العسكرية لإظهارها أقوىٰ بكثير مما هي عليه في التصورات السوفيتية مثلا أمر فيه صعوبة بالغة ومخاطرة كبيرة كذلك! بينما لا يمكن أبدا تجاهل أن الحالة مختلفة تماما مع دول العالم الثالث التي تتصادم مع أمريكا،**

تلك الدول التي يمكن أن تستقبل هذا التصور المخيف والمرعب عن أمريكا بسهولة. في دول العالم الثالث صناع القرار يكونون أقل انضباطا والتزاما بالترتيبات والتعليمات المخابراتية. إنهم يتأثرون بالمشاعر والانطباعات (الممررة) إليهم إضافة إلىٰ الفوبيا الناتجة عن الزعامة الضئيلة التي هم عليها وتعرضهم لمخاطر التغيرات السياسية الداخلية المفاجئة[1].

هكذا تجد رئيس أقوىٰ دولة عربية وشرقية يخشىٰ أمريكا ويخضع ويرتدع عن التفكير في معارضتها جديا، بينما لا تجد مثل ذلك عند أصغر الحركات الجهادية الأممية! وهذه أيضا من معضلات العقيدة العسكرية الأمريكية مع تمدد الجهاديين.

بذا نكون قد وصلنا لنهاية فقرة المحاضر البروفيسور كارنز، ليبدأ الكولونيل الأمريكي الدكتور ألفريد بادوك جونيور، أستاذ التاريخ والذي خدم لأكثر من ربع قرن في الجيش الأمريكي، محاضرته.

❁ ❁ ❁

سيتحدث ألفريد بادوك بمقدمة تأريخية للتعرف علىٰ المزيد من كيفية مأسسة الحرب النفسية بصورة أكثر تفصيلا من الدكتور كارنز.

---

(١) السابق: ٢٩.

يقول بادوك:

حدث الاعتراف الأمريكي الرسمي بأهمية الحرب النفسية في أثناء الحرب العالمية الأولىٰ، حين قامت البروباجندا العسكرية بإنتاج منشورات تحض علىٰ الاستسلام توجه إلىٰ العدو عن طريق المناطيد والطائرات التي كانت هذه وظيفتها الرئيسية.

- ثم حدث تطور كبير نحو الاعتراف المؤسسي في الحرب العالمية الثانية، فقد قامت قيادة الحلفاء بتعريف الحرب النفسية أنها (نشر بروباجندا مصممة لهدم إرادة المقاومة في نفوس العدو enemy's will to resist. ولهدم معنويات قواته والحفاظ علىٰ معنويات مناصرينا)[1].

ملحوظة: تعجبني جدا هذه المصطلحات (الخام والبدائية)! ففيها قد تجد الموضوع كله قد تم إيجازه بصراحة بالغة وبلا تعقيد: هدم إرادة المقاومة بداخل نفوس العدو! يا للروعة!

- في أعقاب الحرب العالمية الثانية لم يتم استكمال عمل أغلب القائمين علىٰ الحرب النفسية من المدنيين والعسكريين. لكن أثناء الحرب الكورية في أوائل الخمسينيات تم بعث هذه الوحدات مرة أخرىٰ بصورة أكثر تنظيما من فورت رايلي إلىٰ الأراضي الكورية، لكنها كانت مزودة بأجهزة قوية من راديو وأجهزة طباعة منشورات

---

(١) السابق: ٤٦.

وسيارات وكل الوسائل الإعلامية الممكنة حينها، وكان الهدف هذه المرة هو تنفيذ بروباجندا استراتيجية طويلة المدىٰ لدعم عمليات الجيش الأمريكي. كانت هذه عملية غسيل مخ كاملة تحتاج إلىٰ نفس أطول وكانت موجهة إلىٰ قوات العدو وشعبه وكافة المناطق المحتلة. وقد وصلت كثافة العمليات النفسية في كوريا لدرجة أن القوات الأمريكية كانت تقوم بنشر مئتي مليون منشور دعائي أسبوعيا يتم (قصف) مناطق الشعب الكوري بها عن طريق الطائرات أو المدفعية المصممة خصيصا لهذا الغرض! كانت المنشورات تقدم أشكالا متنوعة من التخذيل والإرجاف وتفكيك الداخل الكوري، فقد كانت مثلا تحفز الجنود الكوريين علىٰ الاستسلام بينما كانت المنشورات الموجهة للشعب الكوري (تطمئنه) أن الأمم المتحدة تدعمه وتقف بجواره لرفع معنوياته (وتثويره؟!) ضد الجيش الكوري!

- كان مركز الحرب النفسية حين إنشاءه في فورت براج مدرسة كبرىٰ غير مسبوقة؛ لا مجرد قيادة عمليات!

لقد تلخصت مهام هذا المركز في الآتي:

تنفيذ تدريبات فردية والإشراف علىٰ تدريب وحدات عسكرية علىٰ الحرب النفسية وعمليات القوات الخاصة -لتطوير واختبار الحرب النفسية والقوات الخاصة من جهة العقيدة والعمليات التنفيذية والتكيتيكات والتقنيات المستخدمة- لاختبار وتقييم المعدات والأجهزة التي يتم توظيفها في هذه الحرب النفسية.

- في منتصف الثمانينات قامت وزارة الدفاع بالموافقة علىٰ خطة رئيسية للعمليات النفسية داعمة للأهداف الوطنية الأمريكية كإطار عام للدولة تعمل به في كافة أشكال الصدامات، في الحرب والسلم، كانت القضية الكبرىٰ وقتها هي حرب الأفكار مع الاتحاد السوفيتي[1].

هذه هي المراحل التي يعرضها بادوك لتأريخ تطور هذا المفهوم ومأسسته: من مجرد عمليات متنوعة لا يربطها رابط إلا مجرد التخذيل والإرجاف وقت الحرب أثناء العالمية الأولىٰ، إلىٰ عمليات تخذيل وإرجاف ورفع معنويات داخلية أثناء الحرب مترابطة معا بمفهوم محدد أثناء الحرب العالمية الثانية، إلىٰ (حرب أفكار) كبرىٰ وممأسسة تعمل في وقت السلم والحرب لردع الجميع عن مجرد التفكير في المخاطرة مع أمريكا! لهذا التسمية المفضلة والأكثر ملاءمة هو (العمليات النفسية) لا (الحرب النفسية)! إن العمليات النفسية مصطلح أوسع ويضم الكثير من التصرفات والأفعال المتداخلة سياسيا ودبلوماسيا وذات الفائدة الكبيرة للمصلحة الوطنية الأمريكية ويتم تنفيذها علىٰ الشعب والحلفاء قبل الأعداء! إن مصطلح (حرب) سيبدو غير منطقي في هذه الحالة بعدما اتسعت التكتيكات وجمهور المستهدفين لهذه الدرجة التي لم تعد مرتبطة

(١) السابق: ٤٧-٥٠.

بوقت الحروب. يقول بادوك عن اتساع دورها الزماني: العمليات النفسية لها دور في أوقات السلم والأزمات أكبر بكثير من العمليات الحربية، سواء بمرافقة العمليات العسكرية أو دون مرافقتها. العمليات النفسية واجبة في كل أنواع الصدام صغر أم كبر![١].

ويقول عن اتساع فئة الجماهير المستهدفة: العمليات النفسية يمكن استخدامها لتحطيم معنويات المجموعات المعادية وتشتيتها أو إرباكها، فحينما يتم استهداف مجموعات معادية فإنه يتم توظيفها كسلاح عدائي قادر علىٰ تعزيز العمليات العسكرية.

ويمكن استخدامه كذلك مع المجموعات غير العدائية (الحلفاء أو الشعب) لتوحيدها وتقديم المعلومات لها أو رفع روحها المعنوية. عندما يتم استهداف مجموعات محايدة أو صديقة، يتم استخدامها لدعم أهداف العسكر بتطوير سلوك تعاوني معهم[٢].

فهي أولا وأخيرا تتكون من أفعال سياسية وأيدولوجية وعسكرية يتم اتخاذها لتوجيه سلوكيات ومشاعر وتصرفات المجموعات المستهدفة كي تدعم تنفيذ الأهداف القومية. وإذا تم استخدامها بطريقة سليمة فإن العمليات النفسية ستسبق وترافق وتعقب كل استخدام للقوة العسكرية[٣].

---

(١) السابق: ٥٩.

(٢) السابق: ٤٥.

(٣) السابق: ٤٥.

وإذا أعدت قراءة الجملة السابقة مرة أخرىٰ، ستجد أنها مصاغة باحترافية كي تكون محايدة: فهي لا تصف (الجمهور المستهدف) بالعدو، هي لا تخصصه. الجمهور المستهدف التأثير في تفكيره وسلوكياته قبل وأثناء وبعد استخدام القوة العسكرية هو الجمهور الحليف قبل العدو!

يختم بادوك كلامه بالحديث عن أنشطة وحدة العمليات النفسية، وأهمية الدراسات التي تقدمها، وضرورة عمليها بلا توقف في السلم قبل الحرب:

- وحدة العمليات النفسية العسكرية مشغولة بصنفين كبيرين من الأنشطة: الأول هو البحث والتحليل والثاني هو العمليات نفسها.

أما الوحدة الأولىٰ، البحث والتحليل، فإن وظيفتها الرئيسية هي المراقبة الدائمة والتقييم المستمر للأجواء النفسية في الأمة الأجنبية المستهدفة لتحديد كيف لهذه الأجواء أن تؤثر في صياغة وتنفيذ سياسات الولايات المتحدة وأفعالها. وإنتاجها قوي متفرد في دراسة وتقييم حالة الأمة المستدفة[1].

- هذه الدراسات والتقييمات تخلق الأهداف النفسية الداعمة لأهداف الولايات المتحدة مرتبطة بالأمم والجماعات الأجنبية. بالتالي فمرحلة البحث والتحليل لا غنىٰ عنها لبدء الصنف الثاني من

(١) السابق: ٥٤.

الأنشطة: تخطيط وتنفيذ حملات خاصة من الحروب النفسية. حيث تُستخدم وسائل الإعلام والاتصالات والتقنيات الأخرىٰ من أجل توجيه الجماعات والأفراد الأجانب كي تتعامل بسلوكيات تدعم الأهداف الوطنية والعسكرية للولايات المتحدة.

- لهذا فإن وحدة العمليات النفسية في أوقات السلم تُشغِّل أبحاثا وتحليلا لمناطق جغرافية معينة وللجماهير المستهدفة. وهي طوال الوقت تمارس قدرا كبيرا من التدريبات وتنفيذ هذه المخططات[١].

ولا يوجد تعليق يمكن إضافته.

❀ ❀ ❀

في ختام هذه الجولة، سنمر سريعا علىٰ روبرت ريبر، الذي تحدث عن حالة المجتمعات في أثناء الحروب قائلا: المجتمع المتماسك جيدا يمكنه مقابلة وضع الصدام والحرب بصورة أكثر عقلانية، يمكنه أن يصل إلىٰ مطالبه ويدافع عن أهدافه دون الحاجة إلىٰ صناعة صورة مشوهة مخيفة لعدوه.

في حالة الانهيار فإن الأشخاص قليلي البأس والمجتمعات المفككة يتصرفون جميعا بصورة مشابهة: إنهم يصبحون متزمتين

---

(١) السابق: ٥٥.

متمسكين بأسلوبهم الاعتيادي ومشاعرهم تصبح أكثر عرضة للعدوىٰ من جماعتهم التي يعيشون بداخلها. إن المشاعر الشخصية الفردية يحولها المجتمع إلىٰ عدوىٰ جماهيرية عامة تتلاعب بالأعصاب كيفما شاءت. ما تفسير هذا؟ إن الجماهير إذ تنشر هذه المشاعر بينها فإنها تعوِّض إحساسها بفقدان الاتجاه عن طريق تعميم القيم المشتركة[1].

إن هذا الكلام يوضح أهمية رسوخ (العقيدة المجتمعية) ووحدتها ووجوب (الدولة الجامعة) في أثناء الحرب، وهذه من المخاطر التي تتجاهلها استراتيجية إبقاء حالة التشرذم الجهادي، إن العمليات النفسية المعادية لا تجابه مقاومة حقيقية في حالة المجتمع المفكك، وأقل مشاعر الهلع تنتشر لتصبح عدوىٰ، والآراء المخيفة الخاصة بفرد مُعوِّق واحد عليم اللسان قادرة علىٰ أن تشيع بسرعة البرق.

كيف تتعامل الحركات الجهادية المتنازعة والمتعددة كما في الحالة السورية مثلا مع هذه الظروف؟ أسوأ تعامل بالطبع! إن جمهور مقاتليها أنفسهم يشعرون بالعزلة والتفكك والضياع ويسهل إرجافهم وإرهابهم؛ فما بالك بالسكان المدنيين! إن هؤلاء الذين يفترض بهم

(١) for more details, see: The Psychology of war and peace: the image of the enemy. Robert W. Rieber: 12.

أن يخوضوا عملا نفسيا كبيرا يكونون أكثر هشاشة في هذه الحالة من السكان، فياللهول![1].

أفضل تمثيل علىٰ ذلك كان غزوة الأحزاب: فبالرغم من مشهد العدو المخيف المثير للهلع، تعامل مجتمع الصحابة العام بهدوء وعقلانية، رأينا مثلها في غزوتي خيبر وتبوك. إن العدو في كل تلك الحالات كان أكبر وأقوىٰ، وكان أول من يدرك هذا الفارق هو النبي والصحابة؛ لكن عقلانية تقدير العدو لم يلزم عنها ما حاول المعوِّقون

(١) الحركات الجهادية الأممية تحديدا تخوض حربا ثورية لا حرب عصابات صريحة، وهناك فارق بين الثانية Guerrilla warfare، وبين الحرب الثورية Revolutionary warfare. الأولىٰ ضربات شبه-عسكرية paramilitary لجيش الخصم بأسلوب حرب العصابات: هدفها إنهاك الخصم عبر الوقت ودفعه للانسحاب لاحتلال مواقعه. بينما تختلف الحرب الثورية! قام الكولونيل جورج بوني، المحلل العسكري الفرنسي، بوضعها في صورة المعادلة الآتية:

ح.ث= = ت.ع + ن: حيث ح.ث ترمز للحرب الثورية. وت.ع ترمز لتكتيكات حرب العصابات. ون ترمز للأنشطة السياسية والنفسية. بحسب تحليل بوني: فإن النشاط الرئيسي للحرب الثورية يكون في مجال الأفكار وعرض الأيدولوجيات المخالفة ونقضها وتبيان مزايا الفكرة التي يتم القتال من أجلها، النشاط شبه العسكري يكون ثانويا في الحرب الثورية، بعكس حرب العصابات العادية. للمزيد راجع:

Political warfare and psychological operations: 113-115.

إشاعته من حالة الشعور بالإرهاب النفسي والخوف الشديد من مواجهته والتهرب منه! وأهمية الدولة، أو القيادة النظامية الموحدة تتبدىٰ في تلك اللحظة التي هزم فيها المسلمون في أحد: لقد تحكم النبي ﷺ في الانهيار النفسي والمجتمعي وعالجه سريعا بوقف سريان وإشاعة كلمات التخذيل والقيل والقال عن طريق الدخول سريعا في رباط عسكري جريء. هذا التحكم النظامي القيادي في الدولة إن فقد كما نرىٰ في حالات التشرذم السياسي والجهادي، ماذا كان سيجري؟! كان الكل سيتحدث والمجتمع سيزداد هلعا وانقساما والمقاتلون المتنافسون (بفرض غياب وحدة قيادة الدولة) سيتبادلون الاتهامات ويفقد السكان ثقتهم بالجميع ويدخل المجتمع في دوامة التخذيل والإرجاف فيزداد انهيارا -حتىٰ لو لم يستغل العدو ذلك في تنفيذ المزيد من (عملياته النفسية)-! ويحضر أمامي الآن تاريخ المسلمين كله وخاصة الأندلس، لكن الكلام سيطول فوق اللازم إن استرسلنا!

إن وجوب القيادة والوحدة في اللحظات الحربية العصيبة لمواجهة عدو قوي أمر لا يمكن الجدال فيه، ففي لحظات الحرب تميل النفس الإنسانية لأيقنة وترميز مفردات هذا الصراع بمجرد البدء فيه[١].

(١) Psychology of war and peace: 14.

وفي هذه الحالة النفسية الجماعية الإنسانية يتم فورا تصوير العدو في هيئة القاهر الذي لا يرحم والمرعب الذي يهدد الوجود ذاته. إن خطورة هذا تتمثل في أنه ما لم يتم تنظيم هذه المشاعر وتوجيهها فإن السلوكيات الجمعية ستتجه إلىٰ الهروب المنظم من هذا العدو المخيف. إن مخاطر هذا الخطاب هو نزع صفة الإنسانية من العدو dehumanization. كما أن المجتمعات التي تتعرض لحروب تصاب ببارانويا واعية حيث تتلاعب بها المشاعر المضللة كيفما شاءت(١).

فكيف يمكن، في حال التشرذم والتنافس، إنتاج استراتيجية موحدة تزيل هذا الرعب الإنساني من السكان وتنظمهم كمصنع لإنتاج المزيد من المقاتلين والمجاهدين بدلا من أن يتحولوا لطوابير من اللاجئين والهاربين؟ الإجابة واضحة: مستحيل! لابد من قيادة موحدة، ولابد من أن تملك تلك القيادة وعيا كافيا بأساليب الحرب النفسية للعدو. وأن تكون لديها استراتيجيات متعددة وتكتيكات كثيرة وديناميكية للتعامل مع تلك الحرب النفسية سواء في تهدئة الجبهة الداخلية أو نقل الإرهاب النفسي إلىٰ داخل أراضيه، بغير ذلك يستحيل وقف العمليات النفسية المعادية خاصة مع الآلة الإعلامية الجبارة التي يمتكلها والطيف الواسع من العملاء النافذين في كل قصر وجحر من الشرق!

---

(١) السابق: ١٥.

بذا تنتهي محاضرات اليوم، وأختم بالبحث الموجز الذي رصدت فيه حالة استخدمت فيها هذه العمليات النفسية بكثافة، وقد نشرته علىٰ الشبكة قبل عامين بعنوان: خوارج العم سام.

❊ ❊ ❊

خوارج العم سام: صناعة أجواء ما قبل الصدام

اقنع- غيِّر- أثِّر persuade - change - influence

من شعارات فيلق العمليات النفسية الأمريكي

في الكتيب الأمريكي psychological operations والذي أصدرته وزارة الدفاع في أبريل عام ٢٠٠٥ كتوجيه عام تفصيلي للعمليات النفسية أهدافها وكيفيتها وأساليب تنفيذها جاءت الفقرات الآتية في المقدمة لتعريف مهمات العمليات النفسية هدف العمليات النفسية هو التأثير علىٰ سلوكيات الجمهور الأجنبي TAs كي يدعم أهداف الولايات المتحدة الوطنية. ومن أدوارها الرئيسية:

التأثير علىٰ الشعوب الأجنبية عن طريق إظهار معلومات موجهة للتأثير علىٰ التفكير والسلوك. وللحصول علىٰ الطاعة compliance وعدم التدخل noninterference أو أي تغيير سلوكي مطلوب. هذه الأفعال تُسهِّل العمليات العسكرية وتقلل القتلىٰ غير الضروريين والخسائر الثانوية. وتعزز أهداف القائد المدعوم: أمريكا وحلفاؤها. وهي كذلك توفر معلومات عامة تدعم وتضخم amplifies تأثيرات الأنشطة الأخرىٰ مثل العمليات العسكرية/المدنية المشتركة CMO

وبصورة أكثر وضوحا هي «تخدم كصوت القيادة المدعوم المتوجه للشعوب الأجنبية لتبيان النوايا الحسنة وبناء المصداقية» وبكل تأكيد، منطقيا، هي تعمل في النهاية لمجابهة البروباجاندا المعادية والتجهيل والتشوية والتضاد المعلوماتي -كي ترسم في النهاية صورة ودية للنوايا «الأمريكية» الطيبة الصديقة والأفعال الصحيحة الإيجابية التأثير بالنسبة للشعوب الأجنبية -وهكذا تُفقد الآخرين القدرة علىٰ استقطاب الرأي العام والإرادة السياسية ضد الولايات المتحدة وحلفائها!»

علىٰ المستوىٰ الاستراتيجي، الولايات المتحدة لا تتحرك بلا دعم دولي واسع، فهي تحتاج للإعلام بصورة مكثفة لخلق هذا الدعم أو تعزيز المخاوف، فتحت عنوان السياسات والاستراتيجيات جاءت الفقرة الآتية: سياسة الولايات المتحدة واستراتيجيتها تطلب حلا سريعا بأقل قدر من فقدان الأرواح وتدمير الممتلكات والبنىٰ التحتية. مفتاح أساسي في بناء هذه الاستراتيجيات والسياسات يكون ببناء دعم دولي في المعتاد يكون من خلال تحالفات واسعة. مفتاح رئيسي آخر لهذه الاستراتيجية يكون عن طريق التأثير علىٰ القيادات والجماعات المؤثرة في الدول الأجنبية، هذه الطريقة قابلة للتنفيذ خلال كامل النطاق الزمني العملياتي: منذ السلام حتىٰ الصدام أو الحرب».

وفي النهاية السي-أُب يمكنها ألا تكون فقط الذراع القوية لهذه

الاستراتيجية، بل تكون أيضا السلاح الملائم الوحيد لأجواء ما قبل الصدامات Pre conflict environment!

تعتبر الفترة الزمنية منذ الثلث الأول للعام **٢٠١٤** حتىٰ الثلث الأول للعام **٢٠١٥**، مجالا ثريا لكل من يحاول دراسة تأثير الإعلام ورصد مصادر صناعة الرأي والوعي الثقافي والشرعي الداخلي إسلاميا، مثل المشايخ وطلاب العلم والمفكرين -ومراقبة قابليتهم للتأثر والتأثير وإمكان استخدامهم بصورة جيدة في السَي-أُب الأمريكي الذي كان يمهد الأرض لضرب تنظيم الدولة، بغض النظر عن قيامهم بهذا الدور بصورة واعية أو غير واعية!

شهدت هذه المرحلة الزمنية حملتين للدعاية السوداء: الأولىٰ ضد تنظيم الدولة في العراق والشام تحديدا، والثانية ضد الحوثيين في اليمن، في الاستراتيجية الأمريكية الحالية للمنطقة فإن الحملة الأولىٰ هي الأهم والأكبر، لم يكن الأمر كذلك بالنسبة للسعودية التي يتهددها الحصار الشيعي الخامل من الشرق والنشط جدا من الجنوب اليمني، لهذا حدث صدام المصالح الأمريكي-السعودي في نهاية العام الماضي وهو صدام للأولوية، سنركز هنا علىٰ الحملة الأولىٰ فقط لأنها أمريكية المصدر بامتياز، وقد كان أسلوب العمليات النفسية الأمريكي واضحا فيها بصورة فجة!

بدأت الحملة الأولىٰ ضد تنظيم الدولة في ختام الثلث الأول

من العام الماضي، كانت لها إرهاصات من قبل من مواطن الخليج لكن ضد الفكر الجهادي ككل، وضد الفكر التكفيري والنفس الخارجي من مواطن الجهاد/أما اشتعالها بصورة لا هوادة فيها أمريكيا ومن ثم خليجيا: سعوديا: سلفيا -فكان بعد اقتراب التنظيم من معاقل الأكراد الكبرىٰ، هنا انتفضت أمريكا وتحركت لتضرب بقسوة ذلك التمدد المستهتر الذي لا يلتزم بالحدود التقسيمية الطائفية التي رسمتها للعراق ولغير العراق؛ فهي لا تريد تكرار حالة العجز الإمبريالي الأوروبي في الحفاظ علىٰ تقسيم تركيا طبقا لمعاهدة سيفر، ذلك العجز والفشل الذي كان مصدره الأول المناهضة التركية المسلحة الشرسة اليائسة للغرب في فرض نفوذه وتقسيماته الخاصة[1]. التحرك الأمريكي كان إعلاميا قبل أن يبدأ سريعا علىٰ الأرض، بعد حملة إعلامية ضخمة في تضخيم الرعب من داعش وتمددها وأثرها بدأ نشاط وزير الخارجية الأمريكي جون كيري المكوكي في التنقل بين عواصم الخليج والعرب يحشدهم ضد داعش التي لا تمثل الإسلام ولا تمثل المسلمين، قالها كيري وقالها أوباما، ولكن كيري كان صاحب الفم الأوسع والنشاط الإقليمي الأكبر فراح

---

(١) Danforth, Nick: "Forget Sykes-Picot. It's the Treaty of Sèvres That Explains the Modern Middle East«.Foreign Policy. August ٢٠١٥.

يحث الدعاة والإعلام علىٰ التنبيه لخطورة داعش وخروجها علىٰ الإسلام والمسلمين[1]!

هنا اشتعل الإعلام العربي غضبا! واشتعلت صفحات غالب المفكرين والعلماء وطلاب العلم بالتحذير من غلو هؤلاء ومروقهم من الدين!

سنتوقف لحظة أمام بعض الظواهر العجيبة التي حدثت في هذه المرحلة من الدعاية الأمريكية السوداء:

فقد قرأت لكاتب عراقي إسلامي صاعد مدحا في ضرب داعش من الأمريكان لأنهم أسوأ ممثل للإسلام والمسلمين وأنهم ألعن الملاعين وأنهم وأنهم! لقد بارك وهلل لمن قتلوا من أهله مليوني شخص علىٰ الأقل بأقل التقديرات عبر عقدين من الزمان واغتصبوا الآلاف من العراقيات وصنعوا ما لا يتحمله ولا يطيقه بشر! هذا الكاتب هو طراز منتشر ومثله كان المئات!

وقرأت لكاتب سوري يعتبر داعش وبشار واحدا يجب استئصاله بالضربات الأمريكية ويجب عدم الإنكار للحظة علىٰ تحالف أمريكا

(١) رددها جون كيري عدة مرات منها تصريحه المرئي في التليفزيون المصري بأن «داعش تدعي بأنها تحارب نيابة عن الإسلام، ولكنها بالفعل لا علاقة لها بالإسلام قطعا» بينما قال أوباما «إن داعش ليست إسلامية» في تصريح مرئي تناقلته وسائل الإعلام.

المبارك! هذا الكاتب هو (طراز) آخر أكثر انتشارا وأكثر قدرة علىٰ فلسفة هذه الرقي الإسلامي الطهوري الداعم لضربات أمريكا! لكن هذين كان موقفهما مفهوما لحديثهما المستمر عن القضية الجهادية السورية أو العراقية .. المواقف المدهشة كانت من علماء وطلاب علم الحركات العلموية الانعزالية (السلفية والصوفية)!

أغلب هؤلاء لم يكن يكتب عن سوريا قبلا! بل منهم من يسكن في الجزائر وتونس والسودان وماليزيا!

فجأة استفاقوا وصاروا يكتبون محذرين من (إجرام) داعش ومروقها من الدين وصاروا يسبونهم ويلعنونهم! شخصيا أعتبر قمة الإبداع وصلوا له لحظة حرق معاذ الكساسبة، فقد وصلت ثورتهم إلىٰ حد أن شيخًا أزهريًّا خرج حينها ليسأل في استخفاف: هل كان الكساسبة (يقصد) حرق الناس متعمدا حتىٰ يحرقوه قصاصا؟!

هذه القمة تلاها برود تدريجي واضح في التفاعل لأن أمريكا كانت قد صنعت التحالفات وشوهَّت داعش ولم تعد الحاجة للعمليات النفسية بذات القوة في مرحلة أجواء ما قبل الصدام Pre conflict environment وبدأ الاستقرار علىٰ خطة القيادة من الخلف بحسب تعبير ميكل نايتس في الفورين بوليسي[١].

(١) Knights, M: "No One Talks About Liberating Mosul Anymore". Foreign Policy. August 11, 2015.

ثم بعد هذه اللحظة بدأ الحماس يخفت مع خفوت الحماس الخليجي الضد داعشي لسبب آخر!

كل هذا عندما تنظر له لحظتها: قد يأخذك التيار والحماسة ولا تبصر المشهد من بعيد!

لكن عندما تجمع القطع المتناثرة، خاصة بعدما بدأت تنحسر الدعاية السوداء ضد داعش وبدأ الخليج في دعاية سوداء خاصة به ضد الحوثيين وتغيرت الأولوية الدعائية من داعش للحوثيين/ لابد وقتها أن تتساءل عن (قابلية هؤلاء الدعاة وطلبة العلم والمفكرين) للاستخدام بواسطة أمريكا: بطريق القنطرة العربية سواء خليج أو غيره!

هنا المسألة ليست حكم داعش تحديدا -خاصة وقادة داعش ساهموا بغباء منقطع النظير في الترسيخ لصورتهم البشعة المجنونة وقاموا بأفعال إجرامية حقيقية بحق المسلمين، لكن المسألة عن كيفية صناعة أمريكا لحالة (زخم إعلامي) يضغط نفسيا وفكريا علىٰ الجميع لإظهار موقف ما ضد فصيل محدد تريد ضربه، كيفية صناعة أجواء (ما قبل صدام) ناجحة جدا!

في هذه المرحلة كان أي انتصار لداعش في أي قضية أو الفرح بانتصاراتهم علىٰ الجيوش المعادية: يعني أنك صرت داعشيا/ سيؤدي هذا لبدء واستمرار هوس المكارثية الضخمة الضد داعشية والاتهام بالدعشنة لكل من لا يقف ضدهم دائما -ومثيلها هوس مكارثية حالية

بوصم أي شخص إسلامي غير معادٍ للإخوان في كل مكان في الأرض بألقاب الأخونة والمتأخونين!

لقد ضغطت أمريكا وصنعت (زخما) أثَّر نفسيا وفكريا علىٰ الجميع .. في النهاية صار معسكر (الضد داعشية) فيه الآلاف من (المفكرين والعلماء وطلبة العلم) وصرنا نجد طالبا للعلم مثل كمال المرزوقي يعيش تحت قيادة مولاه أمير مؤمني تونس السبسي ولا ينطق بحرف واحد عن الحكم الشرعي له -يقوم بإعطاء محاضرة طويلة عن الحكم الشرعي التفصيلي لداعش العراق التي بينه وبينها آلاف الأميال لتبيان لماذا هم خوارج!

ثم -بداهة- صار الجميع يتحدث عن الرضىٰ بتقتيلهم كأنما (الخوارج) هؤلاء لا حكم لهم عند أهل السنة وقتلهم تحت رايات الصليب أمر متفق عليه بين علماء الأمة! المبالغة في الشيطنة والإلحاح ليل نهار عليها وعلىٰ تقديم مشهد واحد فقط من الصورة، سيؤدي لهذه النتيجة بكل تأكيد! هذا الكاتب العراقي السني صار يرىٰ داعش خطرا علىٰ أمته يستحق أن يفرح إذا تخلص منه الجيش العراق الشيعي وقيادته الأمريكية!

المهم أن الزخم كبير والمسألة صارت أشبه بالنثار (النقوط) الذي يتم بعثرته في الأفراح! لقد صار (النقوط) وقتها هو منشور شبكات التواصل أو الإعلام المرئي والمسموع: منشور يلعن في داعش ويعتبرهم هم الخطر الأكبر علىٰ الإسلام والمسلمين!

البعض صنع هذا بوعي لا شك في هذا، والأغلب أظنه لم يكن واعيا للصورة الكبرىٰ، يشارك بالنقوط في الفرح الأمريكي، حتىٰ إذا خفتت ضوضاء هذا الفرح وقرر الخليج بدء فرح آخر انحسر الهجوم، فصرت لا تجد كل يومين مقالا عن خطورة داعش (الحداثية) أو جنون داعش (الوهابي) أو (خروج داعش علىٰ الأمة) أو (عمالة قادة داعش لإيران وأمريكا)!

نعم لم تختفِ تماما لأن الخطر الداعشي علىٰ الخليج لم يختفِ وهناك (أساطين) أجلسهم الخليجيون علىٰ (ثغر) لمواجهة (الفكر التكفيري) الذي تمثله تلك الجماعات المجنونة التي تكفر آل سعود وجيوشهم وأجهزتهم الأمنية، والحرب بين أمريكا وداعش التي قدرها الأمريكان قبلا بثلاث سنوات توقع مؤخرا الجنرال الأمريكي راي أوديرنو أنها ستستمر من عشرة إلىٰ عشرين سنة حسبما نقل عنه ميكاه زنكو في مقاله بمركز/ CFR بالرغم من أن الضربات الجوية ضد التنظيم -بحسب إحصاء مركز العلاقات العامة الخاص بالتحالف- قد وصلت في خلال هذا العام الواحد إلىٰ **٢٥٠٣** ضربة أمريكية في العراق و**٢١٩٠** ضربة في سوريا، بمجموع ضربات (التحالف كله أمريكا وغير أمريكا) يصل إلىٰ **٥٩٨٩** ضربة جوية[١]!

---

(١) Zenko, Micah: "One-year Anniversary of operation inherent resolve". Council on Foreign relations. August 12, 2015.

لكن مع ذلك فالانحسار الكمي والكيفي للمقالات الهجومية والمشاركين في النقوط صار واضحا تماما لمن عايش تلك الفترة الزمنية، وقارن بين الحالة الثائرة في منتصف ٢٠١٤ والحالة الهادئة في منتصف ٢٠١٥!

قابلية هؤلاء للخدمة كبؤر دعائية محتملة جاهزة للتأثر والمشاركة بصورة إيجابية في (الزخم الأمريكي) الدعائي الأسود ضد جماعة تمثل خطرا علىٰ أمريكا، لا يعني اتهامهم بالعمالة، لكنه لا ينفي المسئولية عنهم، ولا ينفي كذلك المسئولية عمن أسميهم جماعات المثقفين مفتوحي المصدر: وهم أشخاص أصحاب ثقافة وفكر لا يقومون عمليا بإدخال مفاهيم الموالاة والمعاداة والهجر في تكوينهم الفكري وتحديد خريطة تلقي المعلومات والتحليلات بالقبول أو الرفض بحسب عقيدة وفكر القائل، هذه الجوانب الإيجابية ظاهريا باعتبار أن الحق غير الإجمالي في الدقائق لا مصدر واحد له -فقد يكون الحق هندوكيا في مسألة دقيقة غير عقائدية- لكنها في هذه الحالة المزدحمة من الزخم والعمل الدعائي/جعلتهم أبواقا تكبر كلام المصادر الثقافية والفكرية والشرعية المختلفة، وأصيب بعضهم باليقين من صواب ذلك الموقف العدائي/الدعائي الذي فرضته أمريكا، فزدات حالة الزخم المعادية الفاضحة لداعش وطغت علىٰ كل شيء.

كل هذا في النهاية أدىٰ لما أرادته أمريكا: نجاح هذا الزخم في تغيير خارطة العداءات وترتيبها .. فقد صارت داعش عند الكثيرين هي (العدو الأكبر) الذي يلزم التحالف حتىٰ لو مع رؤوس الكفر -من أجل دحره .. وانتشر التسامح الفكري بين أشخاص من توجهات عجيبة التنافر (حداثي مع صوفي مع سلفي تقليدي علموي مع جهادي قاعدي) كل هذا من أجل دحر هذا (العدو الأول)!

و(العدو الأول) للأمة حاليا: هي داعش! لأنها تتحدث باسم الإسلام والمسلمين! كأن السعودية لا تفعل هذا! بل كأن أوباما وكيري لا يصنعان هذا!

الختام

إن (التخذيل والإرجاف) وتوهين قوىٰ العدو وحشد الناس ضده لم يعد مجرد كلمات نظرية يتم الاستشهاد بها في مواطن السير النبوية والمغازي: لقد صار (علما عسكريا) يتم استخدامه بصورة مكثفة في عالم مضطرب بالصدامات .. وكلا الطرفين (قادة داعش وقادة الساحة الفكرية المناهضة لهم) ساهم في إنجاح الحملة الدعائية الشرسة التي أشعلتها أمريكا في منتصف عام ٢٠١٤ فالطرف المُستهدَف كان سعيدا بالحملة الأمريكية التي تشوهه وتضخمه وتحاول جعله مجموعة من قتلة الأبرياء المجانين، ففي نفس ذات التوقيت، توقيت حشد الأمريكان للشعوب العربية والغربية، أصدر التنظيم سلسلة أفلام يقتل فيها غربيين، ويمارس عمليات القتل

الجماعي للعشرات من الجنود ويتفاخر علنا بسبي النساء الإيزديات ويتوعد أقرب الناس له -القاعدة- بالإهلاك والذبح بأبشع الصور، وأي محاولة للحديث والنصح مع هذا التنظيم الذي صار يرىٰ في نفسه الأمة ومن دونه خونة/هي محاولة للعبث في الفراغ!

أما قادة الساحة الفكرية المناهضة -إلا من رحم ربي- فاستجابوا لحالة الزخم الأمريكية وساهموا في تضخيم هؤلاء وتضخيم خطرهم/فمجموع من قتلتهم داعش من (الأبرياء) لا يمكن مقارنته لحظة بواحد علىٰ ألف ممن قتلهم بشار أو المالكي، ولا يمكن مقارنته بمن قتلتهم الجيوش السعودية في اليمن، بل ولا حتىٰ يمكن مقارنته بعدد قتلىٰ قوات التحالف الأمريكي خلال عام واحد (١٢ ألف قتيل بحسب نشرة التحالف التي أصدرها في مايو ٢٠١٥) وطبعا التحالف هنا لا يتحدث عن عشرات المدنيين الذين يُقتلون في كل من الانفجارات الضخمة التي يقوم بها بل يتحدث عن جنود التنظيم فقط! لا يتحدث هؤلاء عن الطائرات السعودية التي تخرج لتنفذ تلك العمليات تحت إمرة الأمريكان لقصف المسلمين، ولا عن الحاكم القطري أو التركي أو الكويتي أو الأردني الذي تخرج الطائرات الأمريكية من مطاراته لتنفيذ عمليات قصف كل واحد منها يقتل العشرات من المسلمين مقاتلين وغير مقاتلين، بإشراف أمريكي في تحالف دولي أمريكي بهدف أمريكي وهو استئصال كل إسلام (غير خاضع/متعاون)!

هكذا صار الشيخ جالسا تمر فوقه طائرة قد أقلعت من قاعدة العديد الأمريكية في قطر لتمر فوق رأسه ذاهبة لقصف سوريا أو العراق فلا يسمع صوتها إنما تنتبه حاسة سمعه الفريدة فقط لصوت (الخوارج) القادم من العراق والشام ممن يجابهون هذه الطائرة! ثم إذا تحدثت قال الشيخ أن بيان خطر هؤلاء علىٰ الإسلام أمانة وأنه غير مجبر علىٰ إظهار رأيه في كل المواقف ولابد من إعذار الحكام -إن كان يعذرهم- أو السكوت عنهم خوفا -إن كان لا يعذرهم- وما إلىٰ ذلك من حجج يستدل لها بكل شاردة وواردة!

وصارت صورة مقاتل داعشي يحرق طيارا أردنيا أكثر بشاعة وإثارة للمشاعر والأفكار وحثا علىٰ الكتابة والتحذير -ممن لا (تظهر صورهم) من أبرياء بالآلاف قتلهم هذا الطيار وزملاؤه بكبسة زر في طائرة أمريكية في حلف أمريكي!

إن الاعتذار عن الكلام في (كافة) قضايا الأمة والانتقائية الواضحة والسكوت عن أفعال إجرامية يقع فيها هؤلاء الحكام باسم الإسلام والمسلمين، مقابل تسليط الألسنة علىٰ من (سمحت أمريكا) بتسليط اللسان ضده: هو خيانة لأمانة العلم والثقافة والفكر. إن توجيه سلاح العلم واللسان في مكان ولحظة تقول فيها أمريكا: وجهوا السلاح! وعدم توجيهه لحظة لمن تقول عنه أمريكا بصرامة: إياكم أن توجهوا له السلاح!/هو خيانة للأمانة، نربأ بإخواننا المثقفين والمفكرين وطلبة العلم وغيرهم أن يقعوا فيها مرة أخرىٰ!

الفصل الأخير

معركة الوَهَن

أثناء كل معركة كبرىٰ بين الإسلام والكُفر لابد من معركة أخرىٰ داخلية بين فريقين: فريق أولياء الرحمَن المُجاهدين وفريق أولياء الشيطان المُعوِّقين عن الجهاد. الانتصار فيها مفتاح الفوز في المعركة الكبرىٰ الرئيسية.

وإن الدلائل كثيرة علىٰ كون المُعوِّقين أولياء الشيطان -سواء بعلم أو بغفلة؛ فأصل التخذيل والإرجاف الذي ينطلقون منه هو حب الدنيا إلىٰ حد العشق وكراهية الموت إلىٰ حد الموت! وهو ما نبه إلىٰ كارثيته النبي ﷺ عندما كان يقول للصحابي ثوبان: «**كيف أنت يا ثوبان، إذ تداعت عليكم الأمم كتداعيكم علىٰ قصعة الطعام تصيبون منه؟**

قال ثوبان: بأبي وأمي يا رسول الله، أمِن قلة بنا؟

قال: **لا، بل أنتم يومئذ كثير! ولكن يلقىٰ في قلوبكم الوهن!**

قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟

قال: **حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال**).

وهذا المبدأ الشيطاني: الوهن، نبه علىٰ أصله الرسول عندما قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال له: أتسلم وتذر دينك، ودين آبائك، وآباء أبيك؟

قال: فعصاه، فأسلم.

ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك، وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّول. قال: فعصاه فهاجر.

قال: ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: هو جهد النفس، والمال، فتقاتل فتُقتَلُ، فتُنكحُ المرأة، ويُقسم المال! قال: فعصاه فجاهد.

فقال رسول الله ﷺ: فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقا علىٰ الله أن يدخله الجنة، أو قُتِل كان حقا علىٰ الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقا علىٰ الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابَّة كان حقا علىٰ الله أن يدخله الجنة».

وستجتمع مسببات الوهَن في الثمانية التي ذكرها رب العالمين في سورة التوبة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ فإن تدبَّرت هذه الآية جيدا

علمت إعجاز القرآن: فتكاد مسببات الوهَن وحب الدنيا كلها تجتمع في الثمانية المذكورين: الأهل والأبناء والإخوة والأزواج والعشيرة: القبيلة/ الأصدقاء والأموال والخوف علىٰ العمل والمسكن النظيف الجميل! وإننا لا ننسىٰ كيف بدأت حادثة مقتل الحسين رضي الله عنه وافتتاح عصر الاستبداد والطغيان رسميا، بانفضاض الناس عن مسلم بن عقيل بتخذيلات الأصناف الثمانية كلها تقريبا!

فهذه أدلة أن الشيطان هو أصل إلقاء الوهَن في القلوب بالتذكير الدائم بمسبباته.

والوَهَن هو منبع مُحاجَّات المُعوِّقين؛ فأصل مُحاجَّاتهم الشيطان نفسه، وهم أولياؤه الذين يخوِّفهم ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾.

وفي المقابل فإن رب العالمين قال عن نفسه أنه ﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال الإمام الرازي: **توهين الله تعالىٰ كيدهم يكون بأشياء بإطلاع المؤمنين علىٰ عوراتهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، وتفريق كلمتهم، ونقض ما أبرموا بسبب اختلاف عزائمهم.**

وهو الذي قال: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ وقد قالت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث: «**أتانا رسول الله ونحن علىٰ المُريسيع، فأسمع أبي يقول: أتانا ما لا قبل لنا به! قالت: وكنت أرىٰ من الناس والخيل والسلاح، ما لا أصف من الكثرة. فلمَّا أن أسلمت وتزوجني رسول الله ﷺ ورجعنا، جعلت أنظر إلىٰ المسلمين**

-فليسوا كما كنت أرىٰ! فعرفت أنه رُعبٌ من الله يلقيه في قلوب المشركين». فانظر كيف ظل الجيش هو الجيش بتعداده وقوته؛ لكن نظرة أم المؤمنين له عندما لم تكن مسلمة ارتجفت بالذعر والوَهَن - فلمّا أسلمت رأت الأمر علىٰ حقيقته: لم يكن الجيش ضخما ولا مثيرا للذعر كما رأته في البداية!

ثم من مكر الله بالكافرين أن يجعلهم أحيانا يرون المسلمين قلّة ضعيفة، قال رب العالمين: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ﴾ فإذا حدث القتال ضرب الكفار الذعر من بلاء المسلمين وشدتهم .. شَرحَ الإمام الزمخشري: **قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء، ثم كثرهم فيها بعده ليجترءوا عليهم، قلة مبالاة بهم، ثم تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا، وتفل شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم**.

وقد تكرر في القرآن التأكيد علىٰ أن الله يلقي في قلوب الكافرين الرعب، فقال عن بني النضير: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وقال عن ما حدث لبني قُريظة ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا﴾ .. فأصابهم الوهَن بعدما ألقىٰ الله الرعب في قلوبهم فاستسلموا لعدوِّهِم بلا مقاومة وقد كانوا قادرين عليها .. ولاحظ دائما فعل: القذف/ الإلقاء .. لتبيان حجم الصدمة التي ترجف القلوب ..

وفي المقابل كان دعم الله للمؤمنين دائما لتقوية قلوبهم، ففي الهجرة قوّىٰ الله قلب أبي بكر بالسكينة عندما اقترب الكافرون من موضعه مع النبي ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ ثم صرف الله الكافرين عن موضعهما . . وفي حُنين عندما أصاب الجيش الرعب والصدمة وكادت تحدث الكارثة بانكشاف النبي للكافرين ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فتحقق النصر . . وبعد نكبة أُحُد في حمراءِ الأسَد بينما الأنباء الواردة بأن جيش الكافرين سيعاود الضرب تملأ الأجواء، وبينما كان المنافقون المعوِّقون في أشد حالات الرعب من الاستئصال الذي ينتويه جيش قُريش، ربط الله علىٰ قلوب المؤمنين وأنزل عليهم النُعاس والخدر اللطيف، فقال ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ﴾ . . والأمثلة كثيرة . .

وهو يُحدِّث المؤمنين الذين يصيبهم الوهَن ممن يُمكن لهم أن يتأثروا بالمعوِّقين فيذكرهم بسخافة تفكير الوهَن وحُبُ الدنيا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فالدنيا شأنها هيِّنٌ جدا في الآخرة ولا تستحق ذلك التمسُّك المُوهِن بها!

الخلاصة:

أن الأمر كله لله؛ فهو من يلقي الوهَن في قلوب الكافرين، وهو من يثبت قلوب المؤمنين . .

ويُحارِب الشيطان بمعسكره من أجل نشر الوهَن في قلوب المؤمنين . . ولا يملك من أمر المؤمنين ولا حتىٰ الكافرين شيئا . . فالمؤمن هو من يسمح له بالتوغل في أعماقه وتذكيره بمسببات الوهن من نعيم الدنيا . . والكافر إن انتشر بينهم الاستهزاء بالمؤمنين المجاهدين والاستعلاء عليهم -كان هذا من تدبير الله مكرا بهم . .

فهذان معسكران متقاتلان: معسكر رب العالمين وأوليائه ومعسكر الشيطان وأوليائه . . معسكر المؤمنين ومعسكر المُعوِّقين . . معسكر حب الدنيا ومعسكر الجهاد في سبيل الله . .

فليتخيَّر كل امرئ معسكره!

❋ ❋ ❋

الخـتـام

لن ننخدع!

في عام ١٧٩٨ شاهد سكان الإسكندرية رايات فرنسا علىٰ صواري سفن ضخمة في البحر . .

ثم حدث الإنزال في أبي قير . .

ظن الجميع أن هذه هجمة (فرنجية) صليبية عسكرية أخرىٰ . . كهجماتهم السابقة قبل بضعة قرون . .

لكنهم لم يكونوا يعلمون أي تطور وصل إليه الأوروبيون. وأي داهية تربض علىٰ شواطئ المسلمين!

لقد كانت سفنهم تحمل علماء من كافة المجالات للمرة الأولىٰ.

لم تكن تلك حملة عسكرية غاشمة فقط.

بل كانت بداية حملات استعمارية اجتماعية وثقافية تسعىٰ لدراسة عدوها المُسلِم دراسة متينة وفهم تركيبته جيدا علىٰ كافة المستويات الفردية والعلمية . . لقد جاءت طلائع الاستشراق الاستعماري . .

وظل المسلمون لعقود في غفلة عن حجم الضربة التي تلقوها! ظنوها عسكرية فقط . . مر قرن ونصف من الزمان وبدأ عصر التحرر المزعوم من الاستعمار . . خنست فرنسا وانجلترا وأكثر الدول الأوروبية وأبعدت جيوشها الأوروبية عن بلاد المسلمين . . انتشرت السعادة وبدأ العصر ما بعد الاستعماري وحكم القوميات والوطنيات . . ومر عقد أو عقدان حتىٰ تفطَّن أهل الديانة لفداحة ما جرىٰ خلال القرن ونصف القرن الماضيين! لقد خبِرنا الأوروبيون وصاروا أساتذة حذاق! اخترقونا حتىٰ أعمق أعماق بنىٰ البلاد والعباد! زرعوا مبادئهم الكبرىٰ بداخل سراديب عقول المسلمين ودهاليز نفوسهم فصارت المهيمنة علىٰ أساسات تفكيرهم وعاطفتهم!

نعم رحل الغربي بجنده لكنه ترك لنا جندا وعلماء ومشائخ وساسة كلهم لا يعلمون إماما لهم غير سيدهم العالمي صراحة أو مواربة . . ومن يتمرد منهم علىٰ تلك اللعبة العالمية لمصالح شخصية/ ديكتاتورية أو قومية أو وطنية -يقومون بعقابه وتعزيز شعبه بكافة السبل والوسائل وبكل الدرجات المتصاعدة!

إذن لم يكن هذا تحررا الذي جرىٰ في منتصف القرن الماضي؛ إنما كان استمرارا للاحتلال بواسطة أعداء المسلمين، لكن بشكل جديد ماكر! فقط استُبدِل مارتن وجوني بعبدالسلام ومحمد! استُبدِلت بالأعين الزرقاء والشعر الأشقر واللكنة الغريبة والنظرة المتعالية -أعين سوداء وشعر غامق أكرت ولهجة شعبية محلية مُحببة ونظرة عائلية ودود!

صار العدو من أهلنا فكانوا كما أخبر عنهم نبينا في الحديث المتفق عليه: «**دعاة علىٰ أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها . . قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا**» . .

وعندما بدأ ذلك الإدراك ينتشر، بدأ الجهاد ضد تلك الأنظمة العالمية وحكامهم المحليين الوظيفيين . . وبمجرد اشتعال تلك الشرارة في النفوس . . بدأ المُعوِّقون يظهرون ويعملون بكل طاقتهم ضد هذا الجهاد . .

وكان هؤلاء المعوِّقون أصنافا عديدة ومختلفة، رغم أنهم في النهاية يشتركون في الهدف:

- أخبثهم وألعنهم هو عالِم جاسوس عميل مأجور للنظام العالمي والوكيل الوظيفي المحلي . . يتلقىٰ تعليماته وأوامره من أجهزتهم الأمنية صراحة فيعمل في التخذيل عن الجهاد والإرجاف بالمجاهدين بل وحتىٰ وصفهم بالخوارج وتكفيرهم وتنفير الناس عنهم . . . هذا وهو يعلم صراحة دوره . .

- ثم عالمٌ غافلٌ يعمل نفس عمل الأول لكن عن غير قصد العِمالة:

فمنهم من يكون ممن لا يرون الصورة الكلية للمنظومة العالمية وبالتالي لا يعتبر حاكمه مواليا للنظام العالمي المادي الكافر واليهود

والنصارىٰ . . أو يراها لكن عنده مشكلة عقدية . . فالخلاصة أنه يعتبره حاكما مسلما -فإما أن يعتبره حاكما جائرا أو عادلا . .

فإن كان جائرا وكان العالم ممن لا يُجوِزون الخروج علىٰ الجائرين كعموم الحنابلة والشافعية -كان عاملا عند جهازه الأمني بصورة صريحة أو غير صريحة غير مباشرة باعتبارها أجهزة لأمن المسلمين وردع الفوضىٰ والرعاع . .

وإن كان الحاكم عند العالم عادلا -زاد من عمله ونشاطه لدعمه باعتبار كون حاكمه إماما عادلا من ثار ضده صار خارجيا.

وعالمٌ لا يعتبر حاكما هذا وصفه يصح اعتباره من المسلمين - لكنه لا يرىٰ الخروج عليه لعظم المفسدة . . وهذا حال أغلب علماء الشريعة المعتدلين في مسائل الحاكمية . .

ومثل هؤلاء ينقسم حالهم إلىٰ أقسام:

- فهناك العالم المدرسيّ: الذي يعمل في نشر العلم الشرعي قدر طاقته لكنه لا يتحدث في النوازل ولا يُعلِّقُ بخيرٍ أو بشرٍ في مسائل المسلمين وسياستهم وجهاد نخبتهم وسراتهم في تلك الحرب العالمية الكبرىٰ . .

- وهناك العالِم الانتقائي المُلتزِم: الذي يعمل في نشر العلم لكن بعد التغاضي عن أبواب العقيدة والفقه التي تثير بلبلة عند طلبة العلم وتدفعهم دفعا لتنزيلها علىٰ واقعهم المزري . . فتقوم دعوتهم علىٰ ما سمح به النظام العالمي!

- وهناك العالِم عدو الجهاد: الذي يعمل في نشر العلم مع تعمُّد الهجوم علىٰ المجاهدين والتجريح فيهم في كل فرصة بسبب تصور مُعيَّن لإقامة الدين عنده. وهجومه إما أن يكون بصورة صريحة تحارب الفكرة نفسها -أي الجهاد ضد النظام العالمي أو وكلائه المحليين . . أو بصورة ملتوية تحارب المجاهدين وتطالب بطوبيا جهادية حتىٰ يشترك فيها المسلمون وإلا لا يجوز لأحد الاشتراك فيه! فهذا رغم اعترافه بكفر الحاكم ورفضه العمل عند أجهزته الأمنية -إلا أنه يفيدهم جدا من حيث لا يدري بجعله القعود عنهم هو الواجب الصحيح! ولابد من التفرقة بين نوعين من الذين يهاجمون أحد القيادات: أن هناك من يهاجم قيادة بعينها لسوء إدارتها، كما ينقل ابن قدامة في المغني عن الإمام أحمد بن حنبل كراهته الخروج مع أمير لا يُحسِن القتال؛ فمثل هذا ليس غرضه الطعن في أصل الخروج للجهاد . . وهناك من يهاجم الفكرة نفسها، فكرة الخروج للجهاد. فهذا هو المعوِّق المُخذِّل الذي يستحق الفضح والتبكيت . . وماكرُ المعوِّقين هو من يُغلِّف هجومه علىٰ فكرة الجهاد والخروج له بالطعن فيمن بأيديهم الجهاد، فيظهر طعنه في القيادة التي تُجاهِد كأنه من الصنف الأول بينما الحقيقة أنه قد جبُن عن التصريح بكراهيته لفريضة يُحكم بالنفاق علىٰ كارهها وبالردة علىٰ مُنكِرها وهو يعلم ذلك . . فيضطر لتلك الحيلة الملتفة بإظهار نفسه من أهل الحكمة الناصحين

المحبين للجهاد لكنه لا يرىٰ صحة الجهاد ضد الطواغيت مع أي أحد من المُعاصِرين برغم أن الجهاد المعاصر جهاد دفع يستثنىٰ من شروطه ما لا يستثنىٰ من جهاد الطلب!

وكل هؤلاء يشتركون في التعويق عن الجهاد بصور شتىٰ! حتىٰ من لا يُعلِّق علىٰ أي نازلة -فهو يعوِّد تلاميذه علىٰ ذلك وبالتالي علىٰ العيش في غيتو منغلق عن هموم المسلمين وصراعاتهم الضخمة.

ثم، أخيرا: عالم يفهم الوضع ويقاوم ضد هذا الحاكم.

فهذا موضعه تحديد الإقامة أو السجون والمعتقلات . . منسيا لا يتذكره أحد، معزولا عن المجتمع وأهل العلم ومصادر التلقي والحفاظ علىٰ علمه وزيادته . . وبالتالي يتشكك الناس في علمه المتوقف المحدود أو المتآكل ولا يعتبره طلاب العلم معدودا كأكابرهم الذين يتمتعون بحريتهم ويسهل لديهم زيادة التحصيل والانتشار بين طلاب العلم وبالدعوة بين العوام . . ولا يصير هذا العالِم أمامه سوىٰ طريقين: استمرار مقاومته الشرعية العملية وبالتالي تعريض نفسه للمخاطر بصورة أكبر . . أو الصمت والاستسلام للعزل . . ومن دخل منهم السجون وصار عنده وهن قلبي مع مرور السنوات في غياهب النسيان وعلمت أجهزة الأمن كيف تستخدمه -أخرجته ليصير من الفئة الأولىٰ مباشرة! وقد تُخرِجه وهو لازال ثابتا -لغرض لديها في ضرب تنظيم معين يشكل خطرا لدىٰ هذا الجهاز الأمني وقد اشتهر هذا العالِم بعداوته له. حينها تخرجه لهدف مؤقت ولاستخدامه

بصورة غير مباشرة علىٰ الإطلاق، ويقع المسكين ضحية الاتهامات الداخلية بالتآمر مع الأمن!

❀ ❀ ❀

لقد صارت هذه هي مصائر علماء الشريعة في ذلك الواقع الكئيب، فما بالك بمواقف من هم دونهم مثل المُفكّرين العلمانيين أو الفلاسفة أو عموم الشعوب الذين يعشقون الحياة الدنيا؟!

في المقابل، صار هناك تقسيم آخر لطلاب العلم:

- فهناك المُدجَّن: وهو من يحترم من يعتبرهم أهل العلم الأكابر وهم من استطاع الوصول إليهم لسماح الدولة لهم بالانتشار .. ويتعصب لهم ويتبعهم في تخذيلهم ويصير في المصير المعروف الذي رسمه الطغاة بدقة بعدما دمجوه في مسلك التعليم الشرعي التقليدي لأمم المسلمين. طالب علم ينعزل مع مصدر التلقي الخاص به لسنوات مؤيدا حاكمه أو غير مؤيد لكن صامت منعزل.

- وهناك المُتغاضي: وهو من يحترم علماءه لكنه يحاول التغاضي عن مواقفهم العملية المعوِّقة للجهاد والمناصرة بصورة مباشرة أو غير مباشرة للطغاة الوظيفيين.

- وهناك الإنكاري: وهو من لا يحترم أي صنف داعم للحاكم أو ساكت عنه ولا يأخذ عنهم شيئا .. وإن كان لا يتعدىٰ إنكاره الهجوم علىٰ سكوتهم ..

- وهناك الغلاة: الذين يسقطونهم جميعا دون أي نظر لأي تصنيف أو استقراء للمواقف وأسبابها! فكل من لا يدعم علنا أو يسافر إلىٰ أراضي الجهاد فورا -هو من القاعدين المُعوِّقين المُخذِّلين المخذولين!

- وهناك الخوارج: وهم من يُكفِّرون كل عالم يعيش خارج أراضي الجهاد أو في كل أرض يحكمها الطواغيت الوظيفيين باعتبارهم يوالون هذا النظام العالمي والطاغوت المحلي بالسكوت عنه أو بعدم الجهاد ضده فورا!

❁ ❁ ❁

إن الواقع العالمي في خلال القرن الأخير مختلف تماما عن كل ما جرىٰ في التاريخ .. حتىٰ حكم الطائفة الممتنعة الذي يتناقله أهل العلم المجاهدون لا ينطبق بكل جزئياته علىٰ الواقع المعاصر .. فقد كان التتر وقازان أصحاب اختيار غير مجبورين ولا وظيفيين يتبعون حاكما عالميا كافرا يعملون له صراحة في وأد كل صحوة حقيقية للإسلام تهدد مصالحه .. أما حكام اليوم وقادة جيوشهم فقد تفوقوا في الدناءة حتىٰ علىٰ الطوائف الممتنعة التي جاءت في تاريخ المسلمين! ثم إن حكام دول المسلمين أنفسهم في واقع مأزوم وبعضهم لا يملك الشوكة ولا يملك التحكم في كافة مفاصل الدولة ما بعد الاستعمارية حقا؛ فكيف يجري علىٰ هذا حكم شرعي مثله

مثل الحاكم الوظيفي الصريح؟ وهل يصحُّ أني إذا أجريت حُكما علىٰ قادة جيش بحكم شرعي قاس للموالاة والوظيفية والامتناع عن تطبيق الشريعة -أن أحكم بذات الحكم علىٰ رئيس دولتهم وأنا أعلم يقينا أنه غير مُتمكِّن ولا سلطة حقيقية له عليهم؟ وهل يصحُّ كذلك أن لا أجري الحكم عليه إن كان يتفاخر علنا أنهم يتبعونه وأنه علماني أو معادٍ للشريعة؟

واقع ثقيل وحرب عالمية شرسة وردود أفعال ضخمة وأمة تُضرب في خلاطٍ لا يهمد!

❃ ❃ ❃

ماذا نفعل؟

أعتقد أن هذا الكتاب -إن شاء الله- سيكون جزءا مساهما في معرفة ماذا نفعل! فلابد أن نتعرف علىٰ كافة محاجات المُعوِّقين ومسالك إرجافهم؛ فإن تعرفنا إليها مُجرَّدة كان من المتيسر علينا فضح التخذيلات المنهمرة التي لا يتوقفون عن إمطارها فوق رؤوسنا!

إن تلك المعرفة ستجعل أجهزتنا المناعية أكثر قدرة علىٰ الصمود أمام كل هذه الجيوش والجحافل التي تطالبك بالسكون والركود والانعزال عن تلك الحرب الكونية القائمة منذ فجر التاريخ بين الشيطان والإنسان/ وبين الكفر والإسلام. الحرب المستعرة منذ عقود: بل قرون. بل التي لم تتوقف منذ بدء النبي دعوته! حتىٰ لو

كانت العقود الأخيرة أشدها في الشراسة والعنف!

فبينما يقوم ساسة الأعداء بدعم جيوشهم معنويا ضد المسلمين بكافة السبل والطرق والوسائل .. ومنع التخذيل عن ملاقاتهم والإرجاف بمقاتليهم .. يقوم في المقابل التحالف الوظيفي لساسة المسلمين وشيوخهم، بالتخذيل عن ملاقاة تلك الجحافل والجيوش المتسلطة المعادية!

ويُنصَبُ للمُعوِّقين المنابر في كل مدينة، بل كل قرية، بل كل منزل! فمن لا يصل له المنبر الحقيقي وصل له المنبر المجازي: التلفاز والشبكات! والكل يعمل بطاقته الكاملة وبوسائل متعددة من أجل غرض واحد: إقناعك أن تبقىٰ ولا تخرج لمدافعة تلك الجيوش الكبرىٰ الآتية لبلاد المسلمين كي تذبحهم وتفضح نساءهم ولا تُبقي إلا علىٰ الأفراخ الداجنة تحت سلطة وظيفية جديدة ..

فكيف يمكن إخماد سحرهم المنهمر يوميا إلا بفهم الأسس المُجرَّدة لما ينشرونه من تعويق؟

هكذا يصير التعرف علىٰ تلك الأسس واجبا كي لا تنبهر أبصارنا بهيئة جديدة ومُحاجَّة حديثة -هي في الأصل تنويع جديد لأصل لا يتغير .. وفضح علاقة تلك الأسس والأفعال بسلوك المنافقين علىٰ عهد النبي قد صار واجبا كي لا ينطلي الزيف علىٰ غيرنا وكي ينزجر المُعوِّق المُغفل من أهل العلم وطلبته ..

والخلاصة أن واجبنا هو ألا ننخدع أكثر من هذا!

المحتويات

الموضوع	الصفحة

إخراج فني: حسام الدين قاسم